أشباح

في الظلام

محمد سعيد الشيخ الخنيزي

دار المحجة البيضاء

أشباح في الظلام

الطبعة الأولى
١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م

دار المحجة البيضاء
للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان

حارة حريك - شارع الشيخ راغب حرب - قرب نادي السلطان
ص.ب: ٥٤٧٩ / ١٤ - هاتف: ٠٣/٢٨٧١٧٩ - تلفاكس: ٠١/٥٥٢٨٤٧
E-mail:almahajja@terra.net.lb
www.daralmahaja.com
info@daralmahaja.com

أشباح في الظلام

تأليف
محمد سعيد الشيخ علي الخنيزي

دار المحجة البيضاء



صورة المؤلف

الإهداء

إلى الذين حرمتهم الحياة نعيمها بظلمهم من أخيهم الإنسان

إلى التائهين في همومها إلى المعذبين في وهجها

إلى أولئك أرفع هذا الحرف الذي يسيلُ ألماً وحزناً .

المؤلف

محمد سعيد الشيخ علي الخنيزي

٢٥/ ٣/ ١٤٢٤ هـ

٢٦/ ٥/ ٢٠٠٣ م

المقدمة

هذه حروفٌ لونتُّها من فؤاد الواقع ورسمت خطوطها ريشة الزمن.. الزمن القاسي الذي لا يرحم وكانت رسمةً ترفُّ عليها أطياف الحزن تتمثلُّ في رسمتها وتنسابُ في حروفها إن هذه الرسمة رُسِمَتْ من بسمات الحياة وأفراحها وحلوها ومرِّها اللذين يملآن جنباتها ويغطيان على هنائها. هذه الرسمة خُطت من دموع اليتيم ومن أنَّات الفقير وحسرات المحروم ومن أنين الثكالى ومن جروح الأيِّم، فهي خطوطٌ جُمعت في رسمةٍ تشير إلى دنيا تصارع عليها البشر وتهارش خلف خطوطها الذين ختلوا في ظلامها وعاثوا في أرضها واستعبدوا أبناءها فهي رسمةٌ من تلاوين خطوطٍ أَلَفتها يد الضعفاء لتكون دنيا قصورٍ، وفيض راحةٍ للجبابرة إن هذه الرسمة من أحلام المحرومين الذين يحلمون بالرغيف فلا يجدونه، ويعيشون يصارعون الحياة حتى يغادرونها في لهفةٍ وحسرة محرومٍ انتهى بهم شوطهم إلى دنيا البقاء. إنها رسمة تألف جانباً من خطوطهاً من بسمات العذراء، من أحلام العروس، من نغمات الطير وزقزقات العصافير، من بسمات الفجر، من عرائس النخيل، من أشجار اللوز والأترج والليمون، من أشباح ظلمة الليل وهي تغطي الحياة بأطيافها المرعبة من مغيب الشمس عندما تسكب شفقها على عرائس النخيل والأشجار لتودِّع الحياة، وفي أسطرها إشارة للبشر وإنذارٌ بانتهاء الحياة التي لا تدوم. من هذه الرسمة تكونت خطوطها ونمت رسمتها من هذا الكون الرَّحْبِ، كانت هذه الخطوط من ضياء القمر، من لمعان الشمس، من ضوء الكواكب، وهي من حياةٍ تموج باليقظة والنوم،

وبالموت والحياة تتخلل خطوطها موجاتٌ من خلجات الإنسان ومن خفقات الحب، ومن الشوق العارم، وحظ العاشق العاثر، ومن مجتمعٍ جُمِعَتْ خطوطه وصورت حياته في رسمةٍ يلمس القارئ ذلك المجتمع يتمثلُ له أشخاصاً أمام عينيه حتى يكاد ليتقراه بيده. إنَّ هذه الرسمة رسمتها حروف، والحرف أبلغ أداة في التصوير والتمثيل، فالحرف أصدق معبرٍ في تجسيد الحياة وأبلغ من التصوير الفوتوغرافي وأدق من إزميل النَّحات عندما يجسد صورته أمام عينيه، والحرف إذا لبس الحياة سيظل خالداً إلى أن يشاء الله. كما إني أشكر الأستاذ عصام عبد الله الشماسي الولد العزيز، والأستاذ العزيز محمد رسول أحمد الزاير، وسكرتيري الخاص هشام محمد حسن. على ما بذلوه من جهدٍ في تصحيح ما وقع فيه من أخطاء إملائية. كما أشكر الولد العزيز الوطني المخلص فضيلة الشيخ منصور الطاهر الجشي على ما بذله من جهدٍ واتفاقه مع دور النشر لطبع هذا الكتاب.

٢٩/٨/١٤٢٥ هـ
١٣/١٠/٢٠٠٤ م

الشبح الأول

في ليلة من ليالي الشتاء ذات رعود وبروق وأمطار وريحٍ صرصرٍ لهُ دويٌ ووقعٌ مخيفٌ، انكمشت الحياة وهدأت الأصوات. كان أرباب القصور يتطلعون من وراء بلورات الكوى التي تطل من غرفهم ويرون أنفسهم في أمن من هذه العواصف الشتائية، ولم تأخذهم هزة عاطفية فيحنون على الأكواخ . الأكواخ التي صارت كزورق طافٍ على ثبج المياه التي تدفقت ولا مصرف لها حتى تخفف تلك الويلات أو نزيز معاناة البائس. هكذا أستمر فصل الشتاء حتى أصبح الفقراء البائسون لا مقر لهم ولا مأوى.. ينامون على الأرض.. ويلتحفون السماء.

وفي جنح ليلة من ليالي الشتاء القاسية فقد رئيس من أبناء تلك القرية جواهر ثمينة وقطعاً ذهبية، فلبّس التهمة صاحب أحد الأكواخ ويُدعى حمدان أبو زيد. وكان لحمدان سبعة أطفال صغار وزوجة لا يملكون لأنفسهم حلاً ولا عقداً يعيشون في برعم الطفولة، وفي ظل والدهم البائس ووالدتهم التي تشارك زوجها جشوبة العيش. ألقيَ القبض على حمدان وزج به في السجن وبقي أطفالهُ يتضورون مِنَ السغبِ إذ لا كافل لهم فذهبت والدتهم إلى ذلك الرئيس تتضرع وتطلبُ منهُ الإفراج عن زوجها حيثُ لَمْ تجد في بيتها قوتاً لعيالها ما يقوتهم ولكن الرئيس لَمْ يسمع لتلك النبرات الحنونة ولَمْ يلن لتلك النداءات العاطفية والدموع التي أنبتت على خدِها أشباح الذُلِّ وقربتها إلى هاوية الموت، فركب طغيانه وجبروته وهددها

بسلطتهِ العنيفة إذا لَمْ تخرج وترجع إلى كوخها فسوف يكونُ مصيرُها مصير زوجِها.،. فعاشت في جوٍ ملبدٍ بضبابِ اليأسِ مبطنٍ بالمرارةِ والحرمان.. وفي مساءٍ مِنْ أمسياتِ الشفقِ الغاربِ بالحياة بحياةِ زوجِها يعودُ جثةً هامدةً وشلواً.. وكانت خاتمةً مأساويةً وقصيدةً لها فصولٌ داميةٌ فِيْ ذاكرةِ التاريخ.

٥/ ١٠/ ١٤٢٤ هـ

٢٩/ ١١/ ٢٠٠٣ م

الشبح الثاني

كان كوخاً يجثم بين الأكواخ المتهلهلة التي لا تقي قاطنيها من برد ولا حر، وكان يقطن ذلك الكوخ صيادٌ يذهب إلى البحر في فجر كل صباحٍ قبل أن تشرق الشمس فتلقي خيوطها الذهبية وتلامس قبلاتها مياه البحر لتسكب به الدفء والحنان فيغادر كوخه في غلس الصبحِ وعلى كتفيه ما يصطادُ به، وما يضع فيه ما يرزقه الله من صيدٍ. فشبكة الصيد التي يصطاد بها البحارون قبل تطور الشبكات في ذلك الزمن القديم أنواع السنارة والشقةُ باللغة الشعبية القطيفية و القراقير، وتعريف الشقة هي قطعةٌ من قماشٍ خاص تُحاك ويوضع بها أحبلة وهذه الأحبلة تُحاك من ليف النخل ويكون بها خروق لاصطياد الربيان وتحمل على الكتف، وفي كل يوم بعد صيده ورجوعه من البحر يغسلها ويجففها تحت أضواء الشمس وهكذا دواليك.

أما السنارة والقراقير فيصطاد بها السمك، ذهب هذا البائس بثقله الذي يحمله على كتفيه وظهره ليسير على قدميه المتعبتين ليصطاد ما يغذي به أبناءه وبناته وزوجه الذين أثقلوا حياته بما يسد رمقهم فهم يصلون إلى أثني عشر نفراً، وهذه عائلة ضخمة ثقيلة على رجلٍ يعيش على ما يتحصله من أمواج هذا البحر، وصل هذا البائس إلى ضفاف البحر وكان يوماً شتائياً تكاد تموت في جوه الأطراف ولكن الطموح والحاجة دفعت هذا البائس لنصب شباكه. وفي لحظاتٍ هبت العاصفة لتقتلع ما تمرُّ عليه فانحنى لتلك العاصفة ولكن حنوه لم يجديه واقتلعته وأقصته إلى مكانٍ لا يعرف مسالكه ولا أين هو ولا أين كان.

أما مصيدته فقد أبتلعها البحر وقد جاء الغروب ليرسل طيوفه ويسكب شفقه الدامي على تلك الأكواخ حروفاً تقرأ فيها أسراراً من حياة البشر، ولكن الزوجة الحنون لم يعد زوجها أحمد من رحلته الصيدية البحرية فظلت هي وأبناؤها في موجةٍ من القلق والحزن تلاحقهم أشباح الجوع وتنثر بين أيديهم أطياف المخاوف. لم يعد أبي يا أماه ماذا دهاه هل أستطيع أن أذهب إليه؟ لا يا إبني لا تذهب إليه أتعرف مكانه ولعلك لو ذهبت إليه لا تعود انتظر ففي الصبرِ فرجٌ. وماج الكوخ بالدموع والجروح العميقة.

الحياة لا تتوقف حركتها فقد غشيَ المدينة الليل فغطى الظلام الأكواخ والقصور والمستنقعات والبحار والأنهار لا فرق عند الليل بين هذه وتلك فعاشت سلمى زوجة أحمد وأبناؤها ليلة من السغب حالكة الظلام لا نور، لا أكل، ليس لديهم حتى كسرة خبز ولو يابسة ليأكلونها يتضورون من الجوع لم يعد والدهم لم يعد من يقطر في أفواههم قطرات تحفظ رمقهم وتسد بعض جوعهم ثم تصرخ الزوجة أين أنت يا أحمد ماذا دهاك وبقوا تحت أشباح هذا الظلام متوسدين جنح القلق حتى أطل الفجر ونفض الليل أطيافه ليغطي الفجر أشباح هذا الظلام، وتشرق أشعة الشمس على المدينة أما أحمد فقضى تلك الليلة يرتقب أشباح الموت لأنه لا يعرف أهو في وادي سباعٍ ووحوش أم في وادي سلام وأنس.

أشرقت عليه الشمس وفتح جفنيه، ولكنه لم يميز ما بذلك الوادي من معالم طبيعية أو بيئية يشير إليها بأنامله في أين أنا ومن أين الطريق كل المعالم يجهلها ولم يكن عنده زادٌ ولا ماءٌ إنه يرى نفسه في حياةٍ تدنيه إلى نهاية خاتمة الحياة إلى الموت المحتم. حاول أحمد وقد استولى عليه الضعف أن يفر من ذلك الوادي لعله يرى بأم عينيه طريقًا ترشده إلى الخلاص من هذه الأزمة القاتلة.

مشى في ذلك الوادي حتى ارتفع عنه وإذا به يرى بستاناً فيه نخيل وأشجار ومياه فسرى في أعماق نفسه أمل مخضوضر كخضرة هذه الأشجار

وصل إلى ذلك البستان فحام حوله ليرى باباً ليدخل منه لكنه بعد دورة طويلة حول سياج هذا البستان رأى ما يماثل الكوى فتوقف عندها طويلا هل يزج بنفسه فيدخل وما يدري ماذا المصير وإن بقي سيكون ضحية الجوع والعطش والبرد ففضل الدخول مهما كلفه الثمن دخل هذا البستان وبينما هو يتمشى بين تلك الأشجار التي هي منسقة في أبدع تنسيق حتى انتهى به المطاف إلى قصرٍ ضخمٍ يحيط به الحراس فحالاً هتف به الحراس: سارق. القوا القبض عليه فأجابهم لست سارقاً واسمعوا قصتي العجيبة التي سأقص فصولها لكم ولكنهم انهالوا عليه ضربا وأوثقوه كتافاً لماذا أيها الأخوان فأنا أستغيث بكم أنا جوعان أنا ظمآن أنا رب عائلة تركتها في كوخٍ لا يقيهم برداً ولا حراً وليس لديهم كسرة من خبز ولا معيل لهم بعد الله غيري فلا تكونوا سبباً لقتلهم وأخذ يقص عليهم فصول هذه الحياة المأساوية ولكنهم لم يصغوا له ولا اكترثوا بكلامه كأنما في آذانهم وقراً ويلبسون قلوباً قاسية أقسى من الصخر. وأخذهم الغرور وقالوا وهم يقذونه بالعصي ألم تعلم أن هذا بستانٌ لأحد أبناء رئيس هذه المنطقة فكيف تجرأت ودخلت إليه وما أردت إلا السرقة وهو يتضرع بين أيديهم ولكن بسبب القسوة التي منها تجزرت قلوبهم ونشأت طبائعهم لم تأخذهم رحمةٌ به وأخذوه إلى السجن وتركوه بغير زادٍ ولا ماءٍ مضت على البحّار أيام وهو يعاني من عض القيود ومن الزنزانة التي يعيشُ بها ومن السغب فقضى وأسلم نفسه للموت وانتهت حياة بائسٍ في خاتمته خاتمة حياة عائلةٍ تتكون من زوجٍ وأثني عشر ولداً على أيدي جلادين طغاة.

وبعد البحث عن عائلته جاؤوا به جثةً هامدةً إلى كوخه إلى سلمى حبيبته وأبنائه البائسين خذوا السارق الذي دخل البستان ليسرق وكان جزاؤه الموت وهكذا جزاء كل سارقٍ، ولم تعرف سلمى وأبناؤها قصة زوجها وظلت سراً في تلافيف الزمن حتى مر ذات يوم أحد الحراس على كوخ أحمد فلاحت له لفتةٌ من ليلى بنت أحمد وكانت وردةً قد فتحتها أنامل الربيع إلا أن الفقر والجوع ألقى على جمالها مسحةً تقلل من ذلك الجمال

وبرغم ذلك وقع منها في قلبه حبٌ والحب لا يقف عند حدود لأنَّ الحب لا يحد بمكان أو زمان فهو يخترق كل حجاب ويصل إلى شغاف القلوب فأخذ هذا الحارس ذهولٌ من الحب كما يمس العاشقين وكان يغرق الليل في سهاد وقلق وفي كل مساءٍ يطوف بذلك الكوخ جيئة وذهابا كلما حاول أن يفتح له باب ليلج منه لذلك الكوخ سد أمامه غير أن الغرام يدفعه كما تدفع الريح السفن وذات مساءٍ حمل أطباقا فيها ألوان من الطعام ووَقف على باب الكوخ وهتف بربة البيت وهو يجهل إسمها فجاءت له فقال لها لقد علمت أن رب عائلتكم قد مات مظلوماً وهذه الأطباق أتيت بها إليكم لمساعدتكم على هذا الظرف القاسي الذي تلبثونه وتعيشون فيه فأجابته سلمى أنا لا أعرفك وما الأسباب التي دفعتك لهذه المعونة وقد مضى على فقدنا لرب عائلتنا قرابة ستة شهور ولم نر أي مساعدة. فتوسل لها أنه يريد الأجر والثواب من الله وسوف يقص عليها أخبار موت زوجها ؛ فهنا سلمى استمالت لهذا الحديث ونزل على قلبها كما ينزل الطل سَحراً على ثغور الورود أو كما تنزل قطرات الماء المعين على قلبٍ ظامئٍ في وهج الصيف. أفردت له محلاً في طرف الكوخ وحجبت بناتها في طرفٍ أخر وأدخلته فقالت له: ارو لي فصول قصةِ موت أحمد فأنا قلبٌ وأذنٌ مفتوحان لهذه الأخبار، فقص عليها منذ دخل أحمد البستان حتى خاتمة حياته، ولكن البائسة الذكية لم يفتها السرَّ الذي يكمن وراء هذا الحديث فابدهته كيف عرفت هذه الأنباء ومن أين صدقها فاندفع يؤكدها وهي تستدرجه والحبُّ لليلى يعصر قلبه فيظل يهيم في أفاقٍ من الخيال وشرودٍ من أشباح الترقب والقلق، فتراقصت أطياف ليلى بين عينيه فأباح بالسر أنا كنت أحد الحراس وشاهدت كل ما وقع من ظلمٍ على أحمد.

سلمى: أصحيح أيها الرجل كنت أحد الحراس إذاً اشتركت وساهمت في قتل هذا البائس المظلوم؟!

الحارس: لا لم أشترك.

سلمى: لماذا وكيف كان موقفك موقف المتفرج أم موقف المدافع

أم موقف المشترك، وهنا سلمى طوقت الحارس وأدخلته في قمقمٍ لا يستطيع أن يفلت منه وتاه في جوٍ من أجواء الحيرة والتفكير فإذا هو يبوح بالحقيقة.

الحارس: نعم قد اشتركت في قتل أحمد.

سلمى: لا يجوز لك أن تدخل هذا الكوخ الحقير بعد أن كنت أحد الأطراف والأسباب المشتركة في إزهاق روح هذا البائس المظلوم أخرج من الكوخ ولا أرى لك وجها واحمل معك أطباقك.

لم يأخذ معه الأطباق للمفاجأة التي فاجأته بها سلمى وعرته أمام الحقيقة ولكن سلمى الذكية لحقته بالأطباق وتركتها أمامه ورجعت قافلةً إلى كوخها وعندما غطى الليل الآفاق بأشباح الظلام وساد السكون تلك الأكواخ وجثم عليها أشباح البؤس والفقر وأطياف الموت تصورت سلمى مأساة زوجها الحنون وما تركه من فراغٍ ومن حياةٍ ألم تعانيها فهي تعيش في موقدٍ من جاحم ولكنها استسلمت لربها فاطر السماوات والأرض وطلبت من أبنائها ذكوراً وإناثًا أن يتهيؤا للصلاة في جوف الليل ويدعون لوالدهم بالرحمة ويدعون على من ظلمهم بالنقمة واستمرت سلمى على هذه الصلاة ليالٍ طويلة وفي ذات صباحٍ قبل أن تفتح الشمس أجفانها وتلامس أشعتها عرائس النخيل تسمع سلمى من بعيدٍ أصواتاً فيها نبرة حزنٍ ونعي ماذا دهى المدينة وخرجت لتستقرأ الخبر وابتعدت قليلا عن كوخها وتلك الأكواخ لتدخل المدينة مدينة القصور وعند أول مدخلٍ لبوابة المدينة تفاجئ بموت رئيسها مات هذا الرئيس فجأةً على سريره المبطن بالفراش الوفير والديباج والحرير الرئيس الذي قتل حراسه أحمد ولم ينتصف له منهم.

هكذا مات الرئيس والتقى مع أحمد وكان الفائز هو المظلوم وهكذا يستجاب دعاء المظلوم فإنه لا يحجب

٢٥/٤/١٤٢٦ هـ

٢٥/٦/٢٠٠٣ م

الشبح الثالث

هناك قرية ريفية تلفها البساتين وتعطرها أشجار الليمون والأترج ويتصاعد منها أعطارُ الفل والعمار وتزينها عرائس النخيل ويخرق صمتها نغمات الجداول وزقزقات العصافير وألحان البلابل وتدغدغها النسمات العليلة البليلة بقطرات الطل وتلامسها أضواء الفجر وتفتح كمائم أزهارها أضواء الشمس مجتمعٌ طاهرٌ نقيٌ كأضواء الصباح تعيش تلك القرية في وداعةٍ وهدوءٍ، مجتمعٌ كادحٌ بين فلاحٍ وصيادي سمك وعاملين في إنشاء البناء وبيوت تلك القرية أكثرها أكواخ ماعدا قسم صغير لا يتجاوز بيتاً واحداً لرئيسها، وقد تقسم هذا البيت بعد موت رئيسها إلى عدة بيوت لمن ورثه وبعض بيوتٍ صغيرةٍ لا تتجاوز أنامل اليد تجثم حول هذا البيت، وهذه البيوت أكثرها متواضعة أنشئت من الجص والآجر ولها شرفاتٌ على المعمار القديم في غرفها وأبوابٌ تغلق أما الأكواخ التي تنتشر في تلك القرية بكثرة فهي أنشئت من سعف النخل ومن الحبال الذي يفتل من ليف النخل فكانت تعيش على جوٍ من الطهارة وعلى موجة جزرٍ اقتصادي ساغب. يهّب أهل تلك القرية عندما يؤذن الصفَّاك بإيقاظ النائمين من الكرى فيهبون من تلك الرقدةِ حتى يحين وقت الصبح فيصلون المكتوبة عليهم وهي فريضة الصباح ثم ينتشرون في طريقهم إلى أعمالهم المجهدة فوهج أشعة الشمس على وجوههم ولافحات الصيف تغرقهم من العرق وهم حفاةٌ يلهثون وقرُّ الشتاء يلسعهم بموجاته القاسية الثالجة فشريحةٌ كادحة تشق الأرض لتودعها البذور وأخرى تسقي ذلك الحقل بالماء المتدفق من الجداول وحتى نساؤهم يشتركون معهم في العمل فترى زوجة الفلاح تقف معه جنباً إلى جنب في

ذلك الحقل لتلتقط ما يتساقط من تلك الثمار كما لها دورٌ في موسم الصيف حيث تقوم بسف الظرف وهذا الظرف يؤخذ من خوص النخل الأخضر قبل أن يكون يبسا ويوضع في ماءٍ وبعدها يسف منه ذلك الظرف ليكون وعاءً يحفظ فيه التمر إنه يحكم بطريقة فنيه كما تقوم زوجة الفلاح بجمع التمر الذي يتساقط على الجابور[١] وفي شروب النخل[٢].

كما تذهب ببعض الثمار إلى الأسواق لبيعها فهي عاملٌ تعيش في حياة كدح وشقاء فتمثل الزوجة الطاهرة المشاركة لزوجها في جشوبة العيش فهي كالمحاسب والتاجر والسكرتير ولكن حياة الفلاحين الحياة الشاقة الكادحة حياة وداعةٍ وطهر وبساطة لا تعقيد فيها ولا انحراف وهكذا يعملون منذ الصباح حتى تودع الشمس تلك القرية وترسل أشعتها الورسية الذهبية على عرائس النخيل وصفحات الجداول إيذاناً بموت النهار فأطياف الغروب تتراقص كأنها تقول للبشر مات النهار إبن الصباح ففيه حرفٌ من انتهاء ساعات من أعماركم فتسعى تلك الشرائح الكادحة مع أزواجها بالإياب إلى تلك الأكواخ فيغطيها الليل بأشباحه وتكسو سماء القرية ظلمة دامسة وصمتٌ هادئ كما تصمت فيها أنفاس قاطنيها لأنهم متعبون أنهك أجسامهم العمل الثقيل فيأوون إلى فرشهم وتلك الفرش تمثل الخشونة والبؤس والفراش يتكون من حصيرٍ وقد يزيد عليها باللغة الشعبية القطيفية طراحة وهذه الطراحة تتكون من قطنٍ وقماشٍ لا ينامون على أسرةٍ تغطيها الريش الفاخر والديباج الممتاز فلا كهرباء ولا هاتف، صمت مطبق كصمت المقابر إلا أن ذلك الصمت في تلك الظلمة الدامسة والوحشة البائسة يجرحه خرير الجداول وهكذا دواليك، وفجأة نزل في تلك القرية شخصٌ يُدعى رمزي لم يكن من السكان وقد جاء تلك القرية بفكرةٍ منيرة شفافةٍ في ظاهرها الصلاح، وباطنها هدفها العمل على جمع المادة للثراء والغنى عن

(١) الجابور : هو ما يكون ناشزاً بين الشربين وتغرس فيه النخيل.

(٢) أما الشروب فيكون منخفضاً وفيه تغرس الأشجار بأنواعها.

طرقٍ ملتوية مظلمة، وكان ذكياً فاستغل طهارة وسذاجة أهل تلك القرية لأنه يعيش وسط مجتمع بريء ولا يستشفوا ما وراء الأهداف المبطنة بالختل والزيف. احتفلوا برمزي احتفالاً كبيراً وقدروه تقديراً عظيماً لأنهم رأوا فيه وفي كلماته المعسولة أنه سوف يعلمهم ويرشدهم إلى طرق الخير فأنزلوه بين ظهرانيهم وأفردوا له كوخا وأخذت شريحة من الكادحة تتبرع له في كل يومٍ ببضع ساعات لتشيدَ له ذلك الكوخ إلى بناءٍ من الجص والآجر وفي زورةٍ من زوراته لتلك الأكواخ المتهلهلة وفجأة بدون قصد وقعت منه نظرةٌ إلى فتاةٍ فلاحةٍ تغمرها مسحة من الجمال عمرها في الخامسة عشرة قد تدور نهداها ونضجت ثمارها فهي كنزٌ من الكنوزِ التي منحها الله للأنثى وهي متفتحةٌ كالوردة في الربيع تفضلٌ منه على هذه البشرية فالنظرة تسبي وتُدلِّه الفؤاد وتسلب اللبَّ، والحبُّ يفتكُ بعاشقيه ولا يدع لمن دخل قلبه فكراً أو هدوءاً أو استقراراً فظل رمزي يصارعُ هذا الغرام، ولا يهدأ له فكرٌ يأتي الليل فإذا أوى إلى سريره لم تداعب أنامل الكرى عينيه فيظل قلقاً مُسهَّداً، فحذا به الشوقُ أن يبحث عن وليِّ تلك الفتاة الفاتنة التي رُسِمت صورتها في ناظريه وطبعت ملامحها في صفحات قلبه فقد لاقى في سعيهِ تعباً جهيداً حتى تعرف على والد تلك الفتاة وهذا الوالد فلاحٌ بائسٌ لا يملكُ في كوخه ما يدَّخرهُ لغدهِ إن قوتهُ وقوت عائلته لا يزيد على يومه مما يجنيه من عرقه وعرق زوجهِ وجاء رمزي في زيارة لهذا الفلاح الذي اسمه حامد لينشئ بينهما فاتحة إخاءٍ كجسرٍ يوصله لنيل أمنياته والظفر بحبيبته يجعلها طريقًا لمآربه حتى يصل الى مصاهرة ذلك الفلاح بيدَ أن حامداً كان ذكياً بعيد النظرات عندما استقبله في ذلك الكوخ المتواضع وبدأ رمزي يشيدُ بأخلاق حامد وماله من نشاط في الحياة الزراعية لم تثِره كلمات رمزي ولم تنعكس تلك الكلمات المعسولة على أسارير وجهه بالرفض أو القبول فقرأ رمزي هذه الأسطر في خطوط جبين حامد فقضى تلك الجلسة وخرج منها ليعود مرة أخرى بعد أيامٍ، عاد رمزي لزيارة حامد البائس يحملُ معه هديةً ثمينة وتردَّد في مفاتحته بالمصاهرة ولكن الحب العنيف الذي استولى على

مشاعره وأثر على قلبه لم يعطه فرصةً للكتمان فباح بالسر الذي يتنزى في قلبه إنني جئتك يا حامد طالباً يد أبنتك فهل أنت موافق على ذلك وأردف وكيف لا توافق وأنا من تعرف مقامي في مدينتي وفي قريتكم، وإني سوف أسعد هذه الفتاة (ليلى) وأفرش طريقها بالنعيم وسترى حياةً تفيض بالحب وبأحلامٍ ورديةٍ لم تحلم بها حتى في المنام، صمت حامد وكان بينهما فاصل هذا الصمت الرهيب وحامد بين إصبعيه عودٌ ينكت به الأرض لا يخط حروفاً لأنه أميٌ وإنما ينقش خطوطاً كخطوط المهندس الذي كأنه يبحث عن كنزٍ في الرغام أو كشيخٍ يبحثُ عن حلم الشباب وكأن ذاكرته عادت به إلى أفق أسرته فأخوه لديه ابنٌ شابٌ مكتنز الشباب يتورد شبابه كالربيع ويهز الأرض كما تهز العواصف النخيل والأشجار فأجابه كنت أودُّ أن أُصاهرك لولا! وصمت وكانت هذه الكلمة تشبه الصاعقة على رمزي.

رمزي: لماذا لولا ألستُ أهلاً إلى مصاهرتك.

حامد: لولا أن إبنتي ليلى هي مسماةٌ لأبن عمها داود.

رمزي: لم يكتب بينهم كتابٌ إنما هو كلامٌ ففي مقدورك أن تمحو هذا الكلام وأنا لابنتك ليلى أفضل لسعادتها وحياتها من أبن أخيك داود الفلاح البائس.

حامد: غضب من هذه المقولة وسخر من هذا الرأي وأوجز له الجواب في حروفٍ: إن الشرف والمجد هما في صلة الرحم وهما الدعامتان التي يقوم عليهما هذا الكوخ إذ ليس له دعامةٌ إلا تلك كما أن أهله يعيشون على منهجية أخلاقية فاضلة لا تعشوهم المادة ونحن نسير على تراثٍ خلقي ورثناه من آبائنا عن أجدادِنا ثم ختم حرفه قائلاً يا رمزي إني أستودعك الله فإنني أريد أن أذهب إلى الحقل.

رمزي: خرج غاضباً ودبر في نفسه مكيدةً يكيدُ بها حامد فأخذ يثير عليه بعض سكان أهل القرية.

وبعد هذه الإثارة والمكيدة انقسمت القرية إلى شريحتين واستعرت نار الفتنة وتحطمت تلك الحياة الوديعة الهادئة وانقلبت إلى حياةٍ ضوضائية يكثر

فيها القال والقيل وقول الزور وكلٌ يعظم رأيه وشغلهم رمزي بفتنة ساعرة يعيشون على مرجل من لهيب وينامون على موقدٍ من جمر واستمرت هذه الحياة القلقة فترةً من الزمن ورمزي يقهقهُ ويصفق لهذه الفتنة ويمدها بالوقودِ واضطرامِ هذه الفتنة التي أسعرها عادت عليه بمالٍ وفيرٍ من شرور هذه الفتنة ولما يأتيِ به من ألوان الحيل ودروب المكر فتنبه شخصٌ ذكيٌ من القرية أحد أبناء رئيسها فأقام لهم مأدُبَةً وجمع عقلاءهم وذكرهم بحياتهم الماضية وصفائها وطهارتها قبل أن يطأ قريتهم هذا الشرير رمزي وفجأة في جرأةٍ نادرة قال لهم إني قررت طرد هذا الشرير من هذه القرية لأريحكم من شروره كما أطلب منكم مساعدتي وعدم الاعتراض عليَّ في هذا الرأي ولم أكن مستبداً برأيي وإنما كنت معكم كواحدٍ منكم لا فرق بيني وبينكم فماذا ترون في هذا الرأي ولا تتفرقوا من هذه الندوة حتى ننفذ ما عرضته عليكم من رأيٍ على كبدِ الواقع لأنني أخشى من تفرقنا يتسلل هذا الطيف الشرير فيسري في دمائنا كما ينفذ الشيطان مستغلا هذا الخلاف الذي أوجده بصنعه كسلاحٍ يمدُّ به الفتنة ليرقص ويقهقه في قريتنا كالذي يتجرد من الإنسانية فيرقص على قبور الموتى أجلسوا هٰهنا وسوف أنطلق وأعود لكم فجاء ابن عمدة القرية مع ثلة من الشباب الأقوياء حاملين هراوات وعصياً وطرقوا عليه الباب وخرج رمزي ففاجؤوهُ بقرارهم الخطير أن جميع قاطني هذه القرية قرروا طردك من قريتهم وإبعادك عنها ثم وضعوه على أتانٍ وأخذوا معه ما كان له في ذلك المنزل من أثاثٍ ومالٍ جمعه من تلك القرية وصاحوا به إننا نعاملك معاملةً إنسانيةً شريفةً حيث لم نصادر ما كسبته منا من طريق غير مشروعٍ ولكن لابد لنا من إخراجك لأنك أصبحت عضواً سرطانياً إذا لم يبتر سيفتكُ بمجتمعنا كما بدأ ذلك الوباء ينتشر ويتصاعد لهيبه في سماءِ قريتنا فانطفأت الفتنة وعادت القرية لصفائها وهدوئها وسلامها وحياة القرية التي تفيض بكرمها وأخلاقها الحسنةِ كما كانت تعيش من ذي قبل.

٥/ ٥/ ١٤٢٤ هـ

٥/ ٧/ ٢٠٠٣ م

الشبح الرابع

دار بين أحمد وسليمان حوارٌ طويلٌ قال أحمدُ لسليمان هل تستطيع أن تصف لي الزعامة التي تنبعث من واقع الإخلاص في صالح الوطن وتعملُ جاهدةً في سبيل الخير وليس هدفها الأنانية أو كلمة أنا أو لمصلحةٍ ماديةٍ أو جاهٍ أو لهدفٍ دنيويٍ يتعلق بمصلحة ما.

رد عليه سليمان في حرفٍ يرسمُ مفهوم الزعامةِ وما هي فبدأ يرسم خطوط الزعامة في قولة تُختصر وتحدد مفهومَ معنى الزعامة. إن أوصاف الزعامة في مفهومها الكلي هي الإخلاص ونبذ كلمة أنا وما يترتب عليها من أهدافٍ تمتُ وترتبط بالمنافع الشخصية وتعيش على الأنانية ولو كلفتها إزهاق نفسها في سبيل الوطن فإذا كانت هذه الأخلاق والصفات تحلى بها الزعيم ولبستها ذاته كان هو الزعيم الحقيقي الذي يرى كل عملٍ لابد أن يكون هدفه إرضاء الخالق وصالح الوطن فهذا الذي نسميه زعيماً ونلتف به ونحدق بتلك الشخصية كما تدور النجوم حول القمر أو ندور حوله كما يدور كوكبنا حول الشمس.

أحمد: تعريفك للزعامة والزعيم أرضاني وأوضح لي معنى الزعامة والزعيم، ولكنه بقي لديَّ استفهامٌ يدور في مخيلتي وينعكس على مرآة نفسي ما رأيك لو كان زعيمان على صعيدٍ واحدٍ. واحد منهما نحر راحته ونزل من برجه العاجي ليشارك الوطن في أفراحه وأتراحه ويعيش همومه وليله ونهاره يذيبهما ليغزل منهما بروداً يلبسها ذلك الوطن المحبوب والآخر

يعيش في برجه العاجي لا يشارك وطنه همومه ولا يتفقد مصائبه وما تمر عليه من قسوة الأيام وحوادث الليالي يعيش في معزلٍ بعيداً عن هذا الوطن كأنه في سماءٍ يطل عليه من علٍ فيا تُرى أي ميزان يزنهما ذلك الوطن وأيهما أرجحُ في المقاييس الشعبية والرؤية الاجتماعية هل الذي يذيب نفسه ليزرع الوردة والزنبق ويفرش بها طريق ذلك المجتمع أم الذي يعيش في معزلٍ بعيدٍ كل البعد عن دنيا وطنه إذا فزع إليه في مكروهٍ أو هموم اختصر لهم حرفاً سلبياً وتغلغل في غلائله النعيمية ولم ينغص عليه ما يتمتع به من هناءةٍ من عيشهِ الذي يراهُ في مرآةِ حاضرهِ جميلاً تنعكس طيوفه وظلاله على مرآةِ عيشهِ أما زميلهُ فلا يقدر على حرف السلبِ فحياته كلها إيجاب إيجابٌ بنعم وبلى ولو على سلبِ نومه وراحته ينفض الكرى من أجفانه ليهب فيعيش في أفق همٍ من همومِ ذلك المواطن فما مقاييس ميزان الشعب بين هذين الشخصين.

تنفس أحمد الصُعداء ومشى وفي نفسه صمتٌ عميقٌ وبعد دقائق قال والدموع تطفو على عينيه آهٍ من الإنسان إلى الإنسان أصغِ لي يا سليمان لأحدثك بأعجوبةٍ لا تكاد تصدقها. إن البشر الذين تتكونُ منهم الشعوب أو الأوطان لا يقدرون الفضيلة من حيث الأهداف الإنسانية التي تعُودُ عليهم بالنفع والخير هناك أحابيل تُنصب في الظلام وتلعب عليها أشباح الختلِ والزيفِ وتتراقص عليها أطيافٌ من الأطماع وتلبسها معانيَ من السحر وتسكبها في كؤوسٍ شفافةٍ لتسقي بها ذلك المجتمع فيتخدَّر فلا يرى حقيقة الزعامةِ المخلصة التي ضحت بكلِّ ما تملكهُ من نفسها ونفيسها في سبيل ذلك الوطن فتعيش ما مرَّ بعينيه من تمويه شعاراتٍ براقةٍ فيظل متعلقاً بأهدابها ويهتف لها ويتناسى كل صفةٍ وفضيلة لذلك الزعيم المخلص بل يزيدُ الطين بلة فينبذُ ذلك الزعيم ولا يعرفه إلا يوم الكريهةِ. يوم الكريهة يكون ذلك الزعيم زعيماً وطنياً وتنتهي زعامته بانتهاء مطلوبه فيعود لخانقه فهو يراه في مرآةِ مخيلته الذي زيف عليها إنه هو الزعيم، فإن تجاربي الواقعية حروفٌ مقروءة في كتاب المجتمع لقد صورتها لك من حياةٍ لا

تبقى إلا على الأحيل ولا تعرف للأصلح بقاءً في الحياةِ ولكن هذا المجتمع عندما يفقد ذلك الزعيم الذي شارك الناس همومهم يحسون بفراغه وبمرارة ما يلعقونه من جروحهم جروح الأيام التي تتوالى لتخدد ذلك المجتمع فيرى نفسه تائهاً في صحراء لا مخرج له منها ولا كلأ ولا ماءً مات من كان له حصناً يلوذ به عندما تعصفُ العواصف فيحميه حتى تهدأ العاصفة وتمر في جوه بسلامٍ ولم يغنهم ذلك الزعيم الذي عاش بعيداً في أفقه الفضي وملأته النعيمية يبطنهما بألوانٍ من الحيل ودروب الخداع أواهٍ لقد جهلنا ذلك الإنسان ولم نعرف له حقاً ولم نقدره ولا أقمنا له وزناً بل نبذناه واحتقرناه لقد شعرنا بخسارةٍ وندمنا ولا ساعة مندم إن هذا الزعيم تطل عليهم روحه من كوى الخلود لتخاطب ذلك المجتمع التعيس الذي لا يقدرُ الفضيلة ويهيم بالختل والرذيلة.

أضاعوني وأيُ فتًى أضاعوا ليومِ كـريـهـةٍ وسِـدادِ ثـغـرِ
ولو سد غيري ما سددتُ اكتفوا به وما كان يغلو البّر لو نفق الصفرُ

وهكذا المجتمعات البدائية التي لا تنظر بمنظار الحق وتتعلق بأطياف الخيال التي تُغزل من خيوط مصالحِ لتكون داءً قتالاً للمجتمع ومصير ذلك المجتمع هو التشتت والتشرذم وبالتالي الانقراض فيأسف ويندمُ ويسكب دموعه بعد أن فات الأوان ولا يرد له الأسف أو الدمع ذلك الزعيم ليخفف من ويلاته بل لا يسمع نأمة صوتٍ ولا نجوى له فكأن ذاك الزعيم يهتف على لسانه مقال الحال. ولو سد غيري ما سددتُ اكتفوا به وما كان يغلو التبر لو نفق الصفرُ

٨/ ٥/ ١٤٢٤ هـ
٨/ ٧/ ٢٠٠٣ م

الشبح الخامس

كانت هناك مدينة تعيش على ضفاف البحر تتطاول بعنقها وقصورها التي أنشئت على هندسة المعمار القديم وتحمل روعة التاريخ الماضي ويتمثل فيها المعمار الإسلامي من مساجد وبيوت وطرق متشابكة بعضها ببعض، وبيتٌ من تلك البيوت يضج بشريحةٍ من قاطنيه حيث امتلأ ذلك البيت بتلك الشريحة فلم يعد له طاقة لحمل تلك الشريحة وكان من بين العائلة شابٌ يتوثب فيه الشباب بعيد النظرات طموح الآمال وشابةٌ تفتح شبابُها كما يتفتح الوردُ في ميعة الربيع وتدوَّر نهداها كدورة القمر وامتلأ صدرها بثمرات الكنوز، ونداءٌ على شفتها نداءٌ تتلمض الشهوةُ فيه، وبوحٌ في العيون تقرأ فيه الشوق واللهفة، لم يكن الشاب والشابة غريبين بل يربطهما دمٌ واحد وهما ينتميان إلى أسرة واحدة فالشاب هو أبن عمها وهي بنت عمه ثم يجمعهما ويظلهما سماءٌ واحدةٌ ويعيشان على صعيد بيتٍ يضج بأصوات تلك الأسرة ويملأ تلك الأسرة الحفاظ والدين والتقاليد البيئية والأسرية، فالشابة عفراء تتحجب من رأسها إلى قدميها فلا يبين منها حتى إصبعٍ واحد ولا تكلم ابن عمها عروة إلا في حدودٍ ضيقةٍ ولا تختلط معه برغمِ أن غرفته لا تتعدى غرفتها إلا بخطوة أو خطوتين ولم ينمُ بينهما حبٌ ولا إشارةٌ من بعيدٍ أو قريبٍ ولكن الصدف والمفاجآت قد تأتي على حين بغتة، وفي ذاتِ مساءٍ دخل عروة إلى هذا البيت وكانت عفراء صدفةً خالعة الحجاب وهي تسرح شعرها، وأناملها الذهبية قابضةٌ على مشطٍ تفرق به شعرها فحانت من عروة لعفراء نظراتٌ استشف بها روعة الجمال الذي

تتمتع به عفراء والنظرة الفاتنة من قلب رجلٍ إلى أنثى فاتنة تصبح سهما تصمي القلب وتعطل حركات ذلك الشاب إنها نظرة مغناطيسية أو كهربائية ينبعث منها تيار يلامس القلب ويهجم على الفؤاد من دون استئذان إذا كان التيار الكهربائي يجري في أسلاكٍ حتى يصل إلى تلك المشكاة أما تيار الحب فهو سريع السير بدون أسلاكٍ يصل إلى القلب بهزةٍ ورعشةٍ لا يعرفها ذلك المسحور من أي عضوٍ أو من أي طريقٍ جاءته هذه الهزة وسمّرته وحولته إلى مغناطِسٍ شده إلى ذلك الحبيب وعطل حركته وهو لا يسطيع التحرك من ذلك المكان، جن عروة بهذه النظرة الفاتنة الساحرة لم يتذوق قبلُ معنى الحب ولم يدرِ ما طعمه ولكنه رشف قطراتٍ من هذه الكأس الشفافة.

والحبُّ أول ما يكونُ مُجاجةً فإذا تحكَّم صار بحراً واسعا

فعروة جرفه تيار الحب إلى خضم بحر لا يستطيع العوم فيه ولا يقدر أن يصل بزورقه إلى شاطئ ينجيه فيرتكز عليه، وقف مبهوتاً وعفراء لم تشعر بعروة إلا بعد أن تملى وشرب من جمال ذلك القوام الممتد كعامود النور شعرت عفراء بهذا الشبح المسمر فقامت عجلاء لتلقي عليها ملاءة وتختفي عن أبن عمها لم تعرف عفراء أن هذه النظرات السحرية التي جاءت على غير ميعاد كان لها الفتنة والسحر في قلبِ أبن عمها فأخذ عروة يهتبلُ الفرص والخلسة عندما يخلو البيت ليفضي ما في فؤاده من مكنون لبنت عمه عفراء ولكنه كيف يفضي بذلك وهو في مجتمعٍ مغلق محافظ وبأي تعبيرٍ يصوغه في كلماتٍ رقيقةٍ تنزل على قلب عفراء كما ينزل الطل على ثغور الزهور في ميعة الفجر، ففي ذاتِ مساءٍ جاء وقد خلا له الجو فهتف باسم بنت عمه عفراء أوحدك تعيشين لا أنيس معك.

عفراء: لقد خرجوا وبقيت وحدي.

عروة: لماذا بقيتِ وحدكِ ولم تخرجي معهم.

عفراء: إني أحب العزلة والتفكير في هذا الصمت.

عروة: هل تحبين يا بنت عمي أن أتحدث معكِ لاخفف من هذه الوحشة الصامتة فأنا كلي شوقٌ إلى حديثكِ وطوعٌ لأوامركِ.

عفراء: تفاجأ بلغةٍ لم تعهدها من أبن عمها ولم يدر حديثٌ بينهم على محيطٍ كهذا المحيط صمتت عفراء وهي توجه نظراتها إلى ما وراء الغدِ المجهول ثم استعادت الماضي واستحضرت ذلك الشريط الذي شاهده ابن عمها منها صورةً فاتنةً بدون حجاب استعادت ذلك المنظر الذي تحول إلى شوقٍ يتأجج في قلب ابن عمها ولكنها أرادت أن تستطلع ما استشفته من هذه الذاكرة

وقالت عروة لقد رأيت وسمعتُ منك همساتٍ ومقولةً لم أسمعها منك من ذي قبل فماذا وراء هذه الإشارات أفصح لي.

هنا حارَ عروة فصمت وسكنت أحاسيسه وغرق في تفكير عميق هل يرفع الستارة ويضيء المسرح أم يكتفي بهمسةٍ من همسات العيون وخفقات القلوب فأشار بنظراته التي تفضح عما وراء القلب وفيها دمعتانِ لا تسيلان ولا تغوران وخفق قلبه خفقاتٍ وتنهَّد تنهد العشاق المحرومين ثم صمت وانسل من موقفه ليدخل غرفته لقد حان عودة قاطني هذا البيت. عاد القاطنون فألقي بين عروة وعفراء حجابٌ لا يستطيعان أن يخرقاه ولكن عفراء باتت تلك الليلة مسهدة الجفون قلقةَ الفؤاد لأنها برغم ما عرفته من النظرة التي شربها ابن عمها وأضاءت له طريق الحب لم يدر في مخيلتها أن يتحول عروة هذا التحول وأن يقف هذا الموقف ولكنَّ ذكاءها الحاد ورؤيتها لأسرار الحياةِ والغرام أرشدها أن الحبَّ ليس له حدود ولا يقف عند مكانٍ أو زمانٍ الحب يتغلغلُ في القلوب حتى لا يدع لمن يحب رؤيةً في الحياة إلا صورة حبيبه.

ظلت عفراء قلقة تلك الليلة تضرب أخماساً في أسداسٍ وتقرأُ سفر عائلتها أحرفًا من الحفاظِ والانغلاق وتقرأ في كتابٍ كبيرٍ كتاب مجتمعها وتخشى على كرامتها وطهرها أن يدنسه المغرضون لأنها زنبقةٌ طاهرة لم

تعرف غير العفة فلم تختلط حتى بمثيلتها من الفتيات تفضل العزلة وقراءة الكتب والقصص على ذلك المجتمع المملوء بالقيل والقال قضت ليلتها بجفونٍ مسهّدةٍ نفضت الكرى من أجفانها وأشعلت مصباحها الذي زيته الكيروسين وهو (الجاز) وتناولت من رفِ مكيتبتها قصةً لتسلي نفسها وتخفف من همومها حتى سمعت هاتف الفجر ليخيف النجوم ويريع الليل. انطوى الليل وأبتسم الفجر وليداً يحبو على الأفقِ ليلملم خيوط الظلماء ويغزل أنوار الصبح وأرسلت الشمس أضواءها من كوة غرفتها المتواضعة فأحست عفراء سيُهتفُ بها وستدعى إلى مائدة الإفطار حيث لم تخرج لأمها لمساعدتها في كل صباح فإذا بالباب يطرق وعفراء تخلع ملابس النوم لترتدي ملابسها البيتية، فاجأتها أمها.

الأم: ماذا بك وما أخرك أرى في عينيكِ سهوماً وكسلاً على أجفانك وسهراً يضنيكِ.

عفراء: لا يا أماه إنني أحييت ليلتي أقرأ كتاباً وما شعرت إلا وقد فاجأني الصباح. طوت أمها الحديث ومرت الأيام في عجلتها السريعة كما يمر الطيف على صفحات المرآة، وذات مساءٍ سنحت فرصةٌ فقد خلى البيت وإذا بعروة يقف أمام باب غرفة عفراء وزاده الحب مغامرةً وتضحيةً طرق الباب عليها هاتفاً بها هل تسمحِين أن تخرجي لأحدثكِ حديث الروح للروح.

عفراء: أحست بما في هذه الكلمات من سرٍ كهربائي مرعشٍ كأنامل سحريةٍ تفتح قلبها فارتدت حجابها وخرجت لتستقبل أملها المخضوضر على ذروة الأمل المعسول، ماذا وراءك يا أبن العم؟.

عروة: تردَّد وتلعثمت الحروف على شفتيه وسالت من عينيه دمعتان وخفق قلبه كما تخفق أجنحة الطير ثم سكن روعهُ وقال: عفراء أتيتِ حبيبتي، أنا أحبك أصبحت لا أرى شيئاً في الحياة إلا عفراء.

عفراء: صامتة والحديث يهزها هزاً عنيفاً إنها أنثى والأنثى تخدع بالكلمات المعسولة ولكنها لم تبادله بكلماتٍ غرامية تثير العواطف وتلهب القلوب وأشارت له برسالة غرامية تبادله حباً بحب إنها رسالة العيون رسالة الحب المختصرة التي ترسلها العيون وتترجمها القلوب واختصرت له الحديث عروة تقدم لأبي طالباً يدي إن كنت تريد حياةً سعيدةً وطوت بساط تلك الجلسة ومضت لغرفتها لتغلق الباب عليها.

عروة: تسمَّرَ وغاب عن الوجود ولم يشعر بانسلال عفراء إلا بعد هنيهةٍ، فتح أجفانه لم يرَ الحبيبة أين أنتِ يا عفراءُ ولكنها لم تفتح بابها لتستقبله وخاطبته من وراء الباب أنا هنا يا عروة وقد أبلغتك رأيي ففيه سعادةُ حياتنا.

ذهب عروة وبات تلك الليلة ليفكر كيف يتصل بأبيه ويفهمه رغبته الزواج من ابنة عمه عفراء، الحياة هنا تغلف بقيود وارتباطات اجتماعية لا تحل فلابد من الطواف بها أما عفراء فقد لامست قلبها أنامل الحب وداعبت أجفانها رؤى العشقِ فآثارت عواطفها الشابة الجامحة فكانت تعيش على سُهدٍ وقلقٍ، دخل عروة على أبيه وشرح له رغبته في الزواج من ابنة عمه عفراء، والتمس منه أن يتقدم لأبيها ليتم الزواج، رحب أبوه بهذا الطلب لما فيه من صون أبنه عن الانزلاق وربط المصاهرة دماً بدم أصبح الصباح فكلم أخاه وعرض عليه رغبة أبنه عروة من طلب يد ابنته فأجاب أخوه لا مانع عندي ولكنني سوف أعرض الأمر على عفراء ولم يفاتح عفراء والدها ذلك اليوم وجاءت أمسيةٌ ثانية وقد صفا الجو للحبيبين وتهيأت عفراء وجلست في انتظار حبيبها فما كانت إلا لحظات فإذا بالحبيب يشرق كضوء الفجر في كمائم الزهور فألقى عروةُ تحية الحبِّ وبادلته حباً بحب وبدأ يتنهد ويذوب وجداً في أنَّاتٍ ملتهبة ليشرح الشوق باختصار عفراء لم أعد أنعم بدنيا إنما أنا معذبٌ وأديت رسالتكِ التي حملتينيها إلى أبي وقد قام بتأديتها إلى أبيكِ وكان الجواب من أبيكِ إيجابياً إلا انه علّقه على رضاكِ.

عفراء: حبيبي عروة أنا من لهفةِ الصبابةِ ظمآنة واليك شيقةٌ أنا حنينٌ وأجفانٌ مسهدةٌ كل آمالي أن تضمني بين ذراعيك حروفاً غرامية.

لم تمر على جوِ عروة هل هذه الكلمات تند من شفتي حبيبتي وتترجمها القلوب في لمحات العيون سعر غرامه وتهدجت كلماته في نبرات صوت متقطع أحقٌ حبيبتي تشاطريني الحب كما أحبك ولماذا والدك لم يفاتحك.

عفراء: إن هذا السر لا يزال مخفياً عن قلب أبي والأنثى لا تستطيع في هذا المجتمع المغلق أن تفاتح أباها بحبها أو زواج من ترغب منه ولكنني أرى أن تكلم أباك ليفاتح أخاه في ردِ جواب الخطوبة ثم أضافت حبيبي عروة وددتُ لو امتد عمرُ الزمن لأتحدث معك في سمرٍ لا يمل ولا ينقضي ولكننا نصور هذه الدقائق هي العمر كله فما بعدها من عمر. حبيبي عروة حان الوقت الذي يعود فيه القاطنون فإلى اللقاءِ لقاءِ قلبينِ امتزجا كما يمتزج الماء بالراح.

انتهى المساء والتقى عروة بأبيه ليحثه على مفاتحة أخيه في طلب الجواب وتنهد عروة تنهيدةَ الألم وتنفس تنفس المكروب قرأ والده من هذه التنهيدات حروفاً عرف من نقاطها أن أبنه يحب ابنة عمه لا بل اصطادته بشركٍ أنثويٍّ فطوى ليلته مع هذه الحروف التي أنامته على جنح قلقٍ مسهدٍ في سبيل إنقاذ أبنه حتى يصبح ليفاتح أخاه في طلبه الجواب ثم أردف قائلاً لأخيه ليس هناك بيني وبينك حدود ولولا التقاليد لوافقت بدون أن أرجع إليك، فأطرق أخوه هنيهةً يتملى ويقرأ مقالة أخيه، فكان جوابه إيجابياً سأذهب لبنت أخيك عفراء لأفاتحها في زواجها من أبن عمها وسأوافيك بالجواب في هذه الأمسية وعندما التقى الوالد بابنته عفراء قال بنيتي عفراء أجلسي واهدئي لألقي عليك خبراً ولكِ فيه الحريةُ الكاملة، ففهمت عفراء ماذا يشير إليه الوالد من هذا الرمز المغلف الذي لم يكشف الستار عنه فقالت له تحدث يا أبي فأنا طوع يدك ورهن إشارتك فبدأ الوالد ينبئها إن

ابن عمها قد طلب منه يدها فماذا هي قائلة كانت عفراء مؤدبةً وبعيدة النظرات فأجابته ما رأيك يا أبي أنت؟ صمت والدها لحظاتٍ للموقف الذي أوقفته ابنته فيه تردَّد قليلاً ثم أجاب أبنته ليس لدي مانعٌ يقف في طريق زواجك من ابن عمك ولكن الرأي لكِ.

اغتنمت عفراء هذه الفرصة التي اقتنصتها من والدها اقتناص صيادِ الظباء وأنا موافقةٌ على رأيك لا أخرج عن إطاره فالبنت المؤدبة هي طوع بنان أبيها. أعجب بذكاء عفراء وبحوارها معه وجاء المساء وخلى البيتُ فجاء عروة يتنسم الأخبار ويشرب من ينبوع غرام حبيبته كأساً شفافةٍ تعطيه دفعةً وأملاً كأمل الربيع. استقبلته عفراء بإشارةٍ من إشارات العيون التي تعبر عن أسرار الحب وبخفقةٍ من خفاقات القلوب التي تنطوي على أشواقٍ لا يحملها إلا ذلك القلب فبدأت النظرات العذرية والأحاديث الغرامية بعد أن أرسل عروة زفراتٍ هي من وهج العشق وتنهداتٍ تصور الوحشة التي يعيشها عروة.

عروة: أيتها الحبيبة لقد طال هجراني لكِ وبعدي عنكِ يومانِ لم تلتق النظرات ولم تخفق القلوب يتراءى لي قد مرَّ على بعدنا عشرة أعوام ولكن يا حبيبتي ماذا دار بينك اليوم وبين والدك في مستقبلنا السعيد وحياتنا الزاهرة.

عفراء: بدأت عفراء البعيدة النظرات تقص عليه قصة الخطوبة وكيف عرفت والدها وقرأت أسرار نفسه وغزته من أفاقٍ نفسيةٍ وقالت عفراء لو بدأت بالموافقة إبتداءً لوقف أبي سداً مانعاً في رغبتي لكنه لم يطَّلع على ما يدور في أفاق نفسي وأطلعت على تلك الأسرار التي يغلفها قلبه وانتهى الحديث بالإيجاب وسيخبر والدك بما تم بيني وبين أبي، فلعلك توافيني الليلة أو غداً بما يُفرِحُ قلبانا كما أني أرى أن تسرع في كتابة الكتاب وعقد القران حتى نضمن المستقبل السعيد فذهب عروة لأبيه وانتظر منه أن يفاتحه بخبرٍ مفرحٍ غير أن والده لم ينبس له ببنت شفه لم يتصبر عروة حتى سأل والده ما الخبر.

والـده: إن عمك وعدني أن يجيبني في هذه الأمسية وحتى الآن لم أره

عروة: أبتاه لماذا لا تذهب وهو إلى جنبك وتأخذ منه الخبر.

والده: إنتظر يابني إذا لم يأتي سأذهب إليه.

ولكن عروة يعيش على أفق جاحمٍ وجوٍ ملتهبٍ بالعشق لم يدر والده ولا والد عفراء عن ذلك الغرام الذي نما وتحكم في قلبيهما ولو عرفاه لحطما تلك الحياة وبددا تلك الآمال كما تبدد الريح أوراق الشجر وكان عروة و عفراء يحرصانِ على عدم إطلاع والديهما على ذلك الحب السعيد ومن الصدف أن يمر عروة وكانت عفراء خارجةً من غرفتها فأشارت له بنظرة سحرية غلف ما بيننا من أسرار الحب واكتمها عن والدك حتى لا يتحطم مستقبلنا كما يتحطم الكأس على صخرة الحياة وذهبت يميناً ومضى يساراً لم يبلغ في تلك الأمسية والد عفراء أخاه ولم يلتقيا بل ظل هذا الخبر مغلفاً في قلب والد عفراء حتى جاء المساء الثاني والتقى الحبيبان وتلاقت النظرات ليكتبَ إشاراتٍ من أسطر الغرام التي تشع التماعاً وتكبر بمرور الدقائق والساعات.

عروة: حبيبتي عفراء كل الحياة تهون إلا ما تقفين عليه وكل الساعات تهون علي إلا ساعة لقائي معكِ وكل أرضٍ ليس لي فيها مأوى إلا هذه اللحظات، اللحظاتُ السعيدة هي العمر كله وهذا المحل الضيق هو الأرض بما فيها من رحاب متى أراكِ بين ذراعيَّ وأتناجى معكِ نجوى الروحِ للروح لا نجوى الأشباح للأشباح.

تنهدت عفراء قائلة: حبيبي عروة ما يمرُّ بقلبك من وهج الحب وسعير الشوق هو جحيمٌ في قلبي، كل ما أتمنى في حياتي أن أكون قرينةً لك وأن أعيش لحظاتٍ بين ذراعيك ولا آسف بعد ذلك لو فارقتُ الحياة، ولكن ذكاءها ونظرتها البعيدة التي تستشفُ منها أسرار القلوب وتقرأ ما يخط على أسرار الجبينينِ والدها وعمها والد عروة لو عرف والدي أو والدك ما بيننا

من أسرارِ حبٍ مكتَّمةٍ لهدما هذه الحياة وحولاها إلى جحيم ومصيرٍ مظلمٍ كاتمٍ والفتاة في هذا المجتمع المغلق المتحجر لا حول لها ولا قوة لا تستطيع أن تناقش والدها ولا أن توجه له في مثل هذه الحياة ما يتعلق بها من سؤالٍ أو إشارةٍ كإشارة الشاطئ البعيدة ولو فعلتْ لكان مصيرها مصير الفتاة غير الشريفة التي تطوى صحيفتها ملفعةً بالسواد غير انك يا حبيبي تقدر على إنجاح هذه الحياة السعيدة بحكمةٍ وبعد رأيٍ قبل أن يطوينا الهزال، ونصيراً نضوي هوىً.

انتهت اللحظات لحظات المناجاة بين الحبيبين فجاء عروة لأبيه ليبادله التحية والحديث مستفسراً عن ماذا وراءه من أخبار، هنا ناوله والده رسالةً من عمه والد عفراء بالإيجاب وبارك له بالقران لم يسع عروة ذلك المكان الضيق وكأنه يطوى ذلك المكان ليعيش ويحلق في أفقٍ من النور كيف يبلغ عفراء، تعلل بتعليلاتٍ وكانت الصدفة تسير معه عفراء تمر لیناولها الرسالة لتقرأها وتعيدها إليه قضى تلك الليلة في فرحةٍ غمرت كيانه حتى انطوت وهو في لهفةٍ إلى اللحظات الحبيبة التي يلتقي فيها بحبيبته فهو يرتقبها ويعيش على أحرٍّ من لهيب الذَّرة حانت لحظات اللقاء فإذا بالحبيبة تستقبله بثغر باسم.

عروة: يا حبيبتي أنا اليوم سعيدٌ وغداً إنشاء الله أكون معكِ أسعد من اليوم إن سعادتي هي لا تزال حُلماً حتى تظللكِ معي سماءٌ واحدةٌ.

عفراء: حبيبي عروة انظر إلى المستقبل ولا تذع أسرارنا حتى يقع عقد القران لأننا لا نزال في مهب الريح العاصفة فغلف هذه الأسرار واطوها وأسرع في عقد القران خلال يومٍ أو يومين، إذهب إلى والدك واطلب منه وساعده في هذه الرسالة التي توصلنا إلى مرفأ الوصال.

لم يتردد عروة في ما خططته له حبيبته فذهب من توه إلى والده ليبلغه مراده من الإسراع بعقد القران قائلاً أخشى ما وراء العواقب من أخطار ولم يفسر له هذه الأخطار وبعد يومين تمت مراسم العقد وأصبحت

عفراء زوجته فإذاً لا حرج عليه أن يسلم على زوجته أو يكلمها بدأ يحدثها أمام أمها حديثاً شيقاً كل ما يهمني أن تعيش حبيبتي عفراء في سعادةٍ هنيئةٍ وعندما خرجت أمها طبع على خدها قبلةً وعلى فمها قبلةً فأحست عفراء بسعادةٍ تنعشها وفجرٍ يضيءُ ليلها وكان الزمن يسرع ليلتقي الحبيبان فهيئا مراسم الزواج في ذلك البيت الذي هو يضيق بأهله وقد تخلى والد عروة وأمه عن تلك الغرفة ليفسحا المجال لزواج ابنهما بدأت المراسم لتزيين عفراء لتمضي بها نسوةٌ الى إحدى الحمامات الشعبية وهنَّ يزغردنَ ويغنينَ ثم يعدنَ بها ويعقدنَ إحتفالاً يقّسمنَّ ذلك الاحتفال إلى ثلاث ليالٍ وفي هذه الثلاث ليال تأتي الخاضبة لتصبغ كفي ورجليّ العروس باليرنيئ أي (الحناء) وفي اليوم الثالث عصراً تجلى العروس على منصةٍ تحيط بها أربعٌ من الغيدِ في أيدهنَّ الشموع ويوضع في حجرها رأسٌ من القند أي (السكر) ولكنها قبل أن تجلى عصراً أي يوم الخضاب جاء مسكينٌ يطرق الباب يسأل ذلك البيت أن يفيضوا عليه مما أفاض الله عليهم، لم تنبر واحدةٌ من ذلك البيت لتتصدق فأخذت عفراء الأريحية والشفقة على عطف المساكين لتخرج فتعطيه ثم تعود ولم تعرف أنه ذهابٌ بلا عودة وفرحةٌ وئدت في مهدها خرجت لتناول المسكين وهي تكلمه باللغة الشعبية القطيفية خذ أيها المسكين فكان جوابه أن يدي قصيرةٌ لا تستطيع أن تأخذ ما عندكِ وهي تتقرب إليه وهو يبتعد عنها ولم يدر في تفكير عفراء الذكية ما ينطوي عليه هذا الشرير وكانت اللغة الشعبية بالحرف الواحد خذ يا مسكين (إن يدي قُصِّيرة لا تتطال الغُضِّيرة) حتى خرجت العروس من باب الدار المتواضع التي فيها كنز أحلامها وفجرها الوليد هنا حانت فرصة لذلك الشرير ليحمل تلك العروس على منكبيه ويطير بها أرتفع بها في الجو وهي تقول له أهكذا تفعل بي الليلة التقائي بحبيبي إن المجرمين الشريرين لا تلين قلوبهم ولا يحملوا رقة أو عطفاً انقلب العرس لمأتم وحزن وذهب ذلك الفرح إلى قبرٍ مظلم وحياة مبطنة بالحسرة والألم.

لقد هبط بها هذا الشرير وهو عفريت من الجن في قصرٍ له يصطاد في

كل عام فريسة له ممن لم يحالفهم الحظ ويتركهم في ذلك القصر الذي ينزل إليه من سمائه ولا يُعرف من أيِّ جهةٍ مخرجه وجدت نفسها أمام ضحايا مثيلاتٍ لها كلهم من اقتناص ذلك الشرير فمصيرهن مصير التعساء فأخذن يشرحنَ لها كيف هذا العفريت الشرير يأتي بهن هنا وقبل أن يأتي لهنَّ يرسل إشاراتٍ بروقٍ ورعود وعلى أثرها ينزلُ كما ينزل المارد الشرير وعندما يهبطُ لابد من السعي له وخدمته و تجهيز مأدبة الطعام قبل وصوله وعندما يأكل ينام على فخد فتاة من الفتيات وإن غضب فمصيرها القتل فعاشت عفراء في ذلك الجو الحزين وفي ذات أمسية هبط العفريت الشرير بشابٍ أصطاده ليلة زفافه وبعد مغادرة العفريت سأل تلك الفتيات عن سيرة هذا الشرير فأطلعنه على تلك السيرة الشريرة وتجول في ذلك القصر فرأى فيه ما يثلج القلوب ويبهر العيون كما رأى في زاويةٍ سيفاً معلّقاً لم يطل به التفكير في نصب شباكٍ للتخلص من ذلك العفريت فجاء العفريت ذاتَ مساءٍ وهو منهك مكدود الجسم فالتهم الطعام ثم تهيأ للرقاد فجاء لينام على فخد عفراء الجميلة أرهقت عفراء بذلك الرأس وذلك المنظر القبيح وتذكرت ابن عمها عروة الذي لم تتذوق منه سوى قبلةٍ طبعت على خدها وأخرى على فمها ولا تزال هتان القبلتان تسريان في دمها جاء الشاب بعد أن استولى على العفريت الشرير النوم وأفقده إحساسه وهو يغط ويشخر فأشار إلى عفراء أن تسحب فخذها من تحت رأسه فساعدتها فتاة أخرى لم يمهل الشاب ذلك العفريت فهوى بذلك السيف عليه وفصل رأسه عن جسمه فتحرر من كان في ذلك القصر وإذا بذلك القصر فيه من الأموال والثروة الحيوانية كالخيول وغيرها وخاطبت عفراء ذلك الشاب: إنك أنقذتنا من هذا الشرير فهل لك أن تعيدني لزوجي وكل فتاة تتعلق به وتخاطبه بلغة عفراء أيتها الفتيات إن لغتكنَّ هي لغتي وأختطفت ليلة قراني سأحاول ردكنَّ إلى أهلكنَّ مهما استطعت بأمانةٍ نزل بهن ليس لديه للمواصلات واسطةٌ إلا الخيل فألبسهن لباس الرجال وأخذوا يحومون حول القصر يبحثون عن مخرج يخرجون منه تلك الخيول ويحددون موقع ذلك القصر حتى يعودون إليه وسأل الشاب بعض الفتيات

التي عشن طويلا في ذلك القصر من أين المدخل لهذا القصر والمخرج فدلوه إلى صخرة لها مفتاحٌ تفتح ومنها الطريق إلى الخروج.

عفراء: لا أعرف ركوب الخيل ولم أكن سائسة للخيل يوما ما.

الشاب: إذا أستميحك عذرا أن تكوني ورائي على الخيل وتشدي يدك بمئزري فخرجوا وتلك الفتيات كل واحدة منهن امتطت حصاناً أما عفراء فكانت مع ذلك الشاب الذي سألته ما أسمك فأجابها وماذا تريدين من أسمي؟ الست الذي خلصتنا من حياةٍ مريرةٍ فأجابها اسمي رمزي وظل يسير معهم ولم يكن يعرف ذلك الطريق لأنه لم يسلكه يوما ما ولكن إرادة الله ساعدتهم في ذلك ومر براعٍ أمامه قطيعه وفي يده شبابته وكان عندهم من الأكل والنقود ما يطمع به الشخص. تقدم منه رمزي قائلا له هل تدلني على الطريق وأكافئك فأعطوه بعض النقود وقسماً من أنواع ذلك الطعام فأغرته تلك النقود وسار معهم حتى أوصلهم إلى المسار الصحيح وأخبرهم أن بينهم وبين المدينة إذا ساروا على هذا الطريق قرابة ساعة أو اقل. عفراء عاد لها أملها المخضوضر الذي كاد أن يحملها على أجنحةٍ من الشوق لو استطاعت لطارت بها إلى حبيبها كما يطير الطير ليلقي الحبَّ في فم أفراخه وفتحت قلبها وعينيها كأنها تزرع الطريق بحبها الذي كاد أن يقبر لَولا هذا الشاب. لم تمر ساعة حتى لاحت لهم معالم المدينة وهنا يسأل رمزي أين بيوتكن. عفراء عندما تدخل هذه المدينة سأدلك على بيتي أسرع بي. الفتيات أسرع بعفراء لنودعها في بيتها وصلت عفراء إلى مرفأ السلامة وطلبت من الشاب رمزي ومن الفتيات أن يدخلن معها لتقص قصتها ويؤيدون ما تقول لأن هذه القصة قصة خيالية أو تشبه الخيال ولكن القدر يفاجئها لقد مات زوجها مات كمداً وحسرةً على فراقها كان هذا الخبر عليها كالصاعقة لم تتمالك ولم تنبس إلا بكلمتين ادفنوني معه وشهقت عفراء فإذا هي شلوٌ بلا حراك له فدفنت مع حبيبها.

١٦/ ٥/ ١٤٢٤ هـ

١٦/ ٧/ ٢٠٠٣ م

الشبح السادس

هناك قريةٌ تجثم على ضفة من ضفاف جزر الخليج وفيها كوخٌ منعزلٌ وكان ذلك الكوخ يغطيه فراغٌ ويملأ جوانبه عائلةٌ صغيرة تتكون من أبٍ وأمٍ وفتاةٍ كوردةِ الفجر تتفتح أنوثتها وتزهو بجمالها برغم ما تعانيه من شظفِ العيش ومن بؤسٍ مؤلمٍ باكٍ ومن جوعٍ مدقع ينتشر على وجهها كما ينتشر الشوك تحت أقدام الحفاة والى جنبها صغيرٌ يبُغِّمُ في مهده لا يحس بهذه الآلام ولا تلك المعاناة ولا يحس بهموم الحياة وما فيها من دروب الشقاء الذي تمدد في ذلك الكوخ ظلاً مرعباً وطيفاً مخوفاً يخرج رب الاسرة في كل صباحٍ ليكدح تحت أشعة الشمس الملتهبة ويسبح في موجةٍ من الحرارة حتى يعصر العرق جسمه وتعيا قدماه وتعجز كفه فعمله الشاق الذي هو من أشقى الأعمال حيث يقطع الحجر من البحر ويضعه في سفينةٍ صغيرة فيعود بها إلى المرفأ ليلقي ذلك الحجر ويكومه بعضاً على بعض ليبيعه على الأغنياء الذين ينشئون قصورهم من الآجر والجص فإذا تحصل على دينارٍ ابتاع به غذاء بيته وما يحتاج له من بصلٍ وأرزٍ وإدام وكيروسين (الجاز) فيملأ ذلك الكوخ بسماتٍ مع زوجه الحبيبة وابنته وصغيره لقد عاش ردحاً من الزمن في استمراريةٍ على هذه الحياة وكانت المفاجأة في صباح يوم من أيام الأسبوع لم يشعر إلا والمهندسون يخططون إلى جانب كوخه مخططاً لبناء قصرٍ بجانب كوخه ولم يقتنعوا بذلك الفضاء الرحيب بل إعتدوا على كوخه ليغتصبوا منه مساحة ذلك الكوخ ولم يتركوا له منها إلا بمقدار عشةٍ واحدة فجاء حمدان البائس ليتفاهم مع المهندسين قائلاً كيف صنعتم بهذا

الكوخ فأنه كوخ صغير حقير فأجابوه لابد من أخذ هذا الجزء منه لتعديل المخطط حتى لا يعوج فقال لهم لم تتركوا لي من هذا الكوخ إلا محلاً واحداً فماذا أصنع به اين تنام أبنتي وأخوها وأين أنام أنا وزوجتي لكن صوت البائس لا يشعر به أحدٌ ولا يبلغ سمع أحدٍ فمضوا عنه وهم ينفذون ما حلا لهم أما البائس فقد قسم تلك العشة أي (بقية الكوخ) إلى ثلاثة أقسام وكانت بواباتها التي هي من سعف النخل معبراً لها بدون واسطة حيث سحبت تلك المساحة لم يدر حمدان لمن يبنى هذا القصر ومن هو مالكه لم تطل الأيام فقد كشفت له من هو مالك المخطط ولمن يبنى لفرد من حاشية بعض الرؤساء إذا فهو متعلق بقوة رئيس مسلط على المدينة ويتصرف كيف شاء لم يقدر على منعه أحدٌ إلا فاطر السماوات والأرض استمر في تنفيذ مشروعه وحمدان الفقير البائس انكمش في كوخه وانطوى على مرارةٍ قاتلةٍ وحسرةٍ فارقت ذلك الكوخ البسمة ومرحُ الفقير لتنعكس عليه دمعةٌ وحزن ووحشةٌ رهيبة وتصبغ أرضه بالشجا الممض وبالهضيمة المذلة التي لا يستطيع حمدان أن يقف أمامها أو يحاول استرجاع ما اغتصب منه فضلاً عن أن يثأر لنفسه وتضببت في أفاق نفسه الهموم والذلة حيث أصبح يهدد من لدى مالك القصر يخشى مصادرة هذه العشة وطرده ليعيش في العراء فازداد غماً حتى عجز عن العمل وظل ملقىً على فراشه وليس هناك شخصٌ يتفقده أو يعطف عليه وعلى أسرته الصغيرة وفي صباحٍ مبكرٍ أصيبت زوجته بمرضٍ مفاجئٍ لم يمهلها فإذا بها جثةً هامدةً لا حراكَ فيها فازداد حمدان غماً وأمتلأ قلبه حزناً ومشى في كل عضوٍ من جراحاته طيفٌ يناديه بالرحيل حاول بكل ما عنده من عزمٍ ليبعث في نفسه القوة فيطرق باب بعض المحسنين لمساعدته وعونه على دفن زوجته برغم بعد كوخه عن المدينة فقام بهذه المهمة بعض المحسنين لكن حمدان بات تلك الليلة وكوخه تبطنه وحشة رهيبة وأشباح المنون تتراقص بين عينيه ماتت الزوجةُ فبقيت بنتٌ وصغيرٌ يدرج في فجر عامه الثالث ماذا أصنع يارب وكيف المخرج ارحمني يا ألهي أنا جائع وهذه زهرتي وهذا البرعم الذي

لم يتفتح بعد لضوء الفجر كما يتفتح ذر الورد مغلفاً في كمامات المستقبل ليس لديَّ مطر أو طل ليروي وهج قلبيهما ويخفف من جوعهما وأنا يارب في طريقي إلى الموت فاستودعك هذه الفتاة وهذا الطفل رباه ليس لهم من كفيل أو مدافع غيرك أنا راحلٌ عند الصباح عنهما وقلبي يتمزق عليهما ولكنني لا أملك لهم ضراً أو نفعاً بل لا أستطيع أن أدفع عن نفسي شئٍ أنا ضحية الجوع ضحية الذل وما أدري هل زوجتي كانت لها هذه الميتة المفاجئة من أجل الجوع، هذا الموت السريع الذي لم يعطها مهلةً كان قدراً محتوماً فماذا أصنع يارب أنا أخشى على هذا الغصن الذي لا يزال بذرةً في حقله ويتضاعف خوفي وخشيتي على تلك الوردةِ التي تتفتح في ميعة الصبا ويقبلها ضوء الفجر وأشعة الغروب.

أين تذهب وكيف تعيش إنها أنثى وأخطر ما في الأنثى أنوثتها ولكن إيماني واعتقادي بخالقي هو الذي يحميها ما دامت تعيش على هذا الكوكب ويحفظها وأخاها عندما أغمض جفنيَّ سأغمضهما وأنا راضٍ بكل ما قدر لي وكل ما حل عليَّ من هموم ومصائب لأنها بعين الله وإرادته لماذا لا أرى زوجي تعيش إلى جانبي أين أنتِ الآن أيتها الحبيبة لقد فارقتِ الحياة وتركتِ زوجكِ في فراغٍ وتركتِ ابنتكِ وابنكِ الصغير ليس لهما من يرعاهما ومن يخفف ويلاتهما فقد أحسستُ بدنيا أضيق برحبها وأود لو أنني قذفتها وفارقتها لولا هذه الوردة وهذا الغصن الوريق كم تمنيت أن أفارق الحياة وتظلين أنتِ لهذه الوردة وهذا الغصن يشربان من كأسِ حنانكِ ويعيشان في حجركِ ولكن ليس في الأمر يدٌ حبيبتي أناجيكِ وأهتف باسمكِ فهل يرد عليَّ هذا الكوخ وهل يجيبني هذا القبر لو ذهبت له سمعت صدى صوتك في عشية الظلام يهتف بي، ونظرت لوجهكِ فشهدت البسمة التي لا تفارق شفتيكِ فزادتني توهجاً وتركتيني في سعيرٍ أكاد أحترق من نيرانه زوجتي الحبيبة غداً سألحق بكِ وأترك كبدك وكبدي وفؤادينا إلى العواصف الهوجاء التي لا ترحم الغصون إنها تقصِّف الغصون وتُزري الأوراق وتذبل الورد وتبعثرها في الصحراء لا بل أتركهما تحت ظل

خالقهما في أمانته وحفظه فهو الخالق والمدبر الذي إذا حفظ لا يستطيع أحدٌ من الخلق أن يمس ذلك العبد ولو اجتمعوا وكانوا بعضهم لبعضٍ ظهيرا أيتها الحبيبة قري عيناً وطيبي نفساً لا لن تقلقي على فلذتي قَلبكِ وقد مِتِ وأنتِ في طمأنينة من الآمال ورحلتِ في هدأةٍ ناعمة كنعيم الجنان وغدا سألحق بكِ وبعد هنيهةٍ دعا أبنته هيفاء فقال حبيبتي هيفاء وكبدي التي تسيرُ على الأرض وامتداد حياتي بعد رحيلي من هذه الدنيا الفانية هيفاء لقد حملتك عبأً ثقيلاً حملتكِ متاعبَ نفسكِ ورعاية أخيكِ الذي لا يزال برعماً في وردة الطفولة الوادعة وكان الله في عونكِ وسيفتح الله عليكِ فتح خيرٍ فتنهدت هيفاء وسكبت الدموع فكانت ليلة سوداء يبطنها ضباب الأسى حتى أشرق الفجر وطوى ظلمة الليل وهيفاء تنظر إلى ذلك الصباح لعله يفتح لها من كوى الغيب ما هو في غير الحسبان ولكن القضاء نفذت مشيئته وصلى والدها صلاة الفجر ثم قبل أبنته وشمها وضمها إلى صدره وقبل أبنه وتنهد تنهيدة الوداع وأنطوت صفحةٌ من المأساة لتنشر مأساة أعظم من تلك يبطنها ليلٌ مخيفٌ رهيب قبرت حياة حمدان لينشر الزمن صفحةً من شقاء حياةِ هيفاء فاستعانت هيفاء بالمحسنين لمواراة جثمانه فأخذت الأريحية امرأةً هي زوجة أحد المحسنين الذي قام بموارة جثمان حمدان تسمى رباب جاءت لهيفاء لتأخذها إلى بيتها لتكون خادمة لديها وتعيش وتسد رمقها ورمق أخيها ترددت هيفاء في حيرةٍ وصمتٍ طويل كوخها لا تطاق العيشة فيه حيث رهبة الموت تطوف على تلك العشة الصغيرة وتتمدد فيها أطياف الظلام والوحشة الصامتة لم يعد أباها إلى جنبها فيمد ظله الحاني عليها لقد أنحسر هذا الظل وتقلص وذهب إلى دنيا البقاء وليس هناك حجرٌ تأوي إليه وصدرٌ تنام عليه أمها غادرت هذه الحياة وقصتها مريرة لا تستطيع أن تصور بعض فصولها لم يعش والدها بعد أمها إلا ثلاثة أيام ليصير فصلاً من فصول هذه القصة الباكية كوخها قد أغتصب أكثره فردٌ من حاشية الرئيس لم يستطع والدها أن يقف في طريق اغتصاب ما اغتصبه ذلك الفرد القوي المتسلط فكيف بهذه الفتاة البائسة الضعيفة وليس في كوخها طعامٌ أو ماءٌ

كل هذه الهواجس والهموم تقرؤها هيفاء أحرفا مخطوطة على صفحات دنياها، كيف تعيش أو تطمئن على حياتها وعفتها في هذا الكوخ الذي لا يمنع ولا يحمي منه شئ وبعد صمتٍ طويل وتفكير عميق تنهدت وقالت لرباب ليس لديَّ مخرجٌ إلا الذهاب معكِ لأغذي هذا الطفل ولولا ثم صمتت.

رباب: لولا ماذا يا هيفاء

هيفاء: وترقرقت الدموع في أجفانها وتنهدت تنهد الأشقياء وبكت بكاء الثكالى ثم عادت لولا هذا الطفل لفضلت الموت على الحياة.

رباب: هيفاء ليس العمل ذل لعامليه إنما العمل هو شرف وعزة وأنت سوف تذهبين لتعملي فما تأكلينه أو تتحصلين عليه من أجر هو جزاءٌ لعملكِ خيرٌ من أن يَتَصَدَّقَ عليك أحد وتعيشين تحت ما يتفضل عليكِ به من إحسانٍ.

هيفاء: كفكفت دمعها وحمدت ربها وقالت سيدتي رباب لقد خففتِ عني بعض الويلات وضعت أتمارها الباليه مع ثياب أخيها في زبيل والزبيل يسمى باللغة الشعبية القطيفية وهو يسف من خوص النخل لان الطبقة الفقيرة لا تملك حقائب حتى تضع ملابسها فيها وذهبت مع رباب وهي تحمل ذلك الطفل على كتفها واليد الأخرى تحمل بها ذلك الزبيل حتى دخلت إلى ذلك القصر الفاخر فرأت ذلك الفراش والرياش وهنا رباب قدمت لها الطعام لأنها منذ ثلاثة أيام أو أكثر لم تذق الطعام أكلت بعض الطعام وشربت زجاجة ماء وغذت ذلك الطفل فهي لم تبصر عينها مثل هذا الطعام ولم يتذوقه فمها وخططت رباب لهيفاء العمل الذي تقوم به منذ الصباح الباكر فباتت هيفاء مع أخيها ولكنها تسبحُ وتعومُ في عالمِ من ألم تتصور أباها وأمها والبسمات البريئة التي تملأ ذلك الكوخ والحياةَ البسيطةَ التي لا تعقيد فيها ولا التواء فبعد الغروب يهدؤون ويستسلمون للنوم لا ضجيج ولا مذياع ولا تلفاز حياةٌ صامتةٌ كصمت المقابر ويفيقون على نغمةِ

البلبلِ ليؤدون الفريضة ويحتسون القهوة ثم يذهب والدها إلى البحر لقلع الحصى كل هذه الذكريات تمرُّ شريطاً بين عينيها لم يمضِ عليها إلا ساعات أو أيام الليلة الماضية كان والدها يودعها وتحول كوخها إلى مأتم يموج بالحزن والأسى فكيف تنطوي هذه الساعات المريرة ولم يمضِ عليها إلا بضع ساعاتٍ من دفن أبيها ولكن هيفاء كفكفت دموعها لتنيمَ أخاها في الغرفة التي خصصتها لها سيدتها رباب واستقبلت حياتها واستفتحت غدها بعملها وكانت منسقة واستمرت في ذلك البيت على الطريقة التي خططت لها فأعجبت سيدتها رباب لا تحتاج لإشارةٍ منها لأيِّ عمل أو تنسيق فهي كالدولاب تأخذ دورتها ثم تعود من المركز الذي بدأت منه فازدادت حباً لرباب فأخذت تغدق عليها من الملابس والطعام وعلى أخيها رمزي الصغير وبدأت هيفاء في حلتها الفضفاضة قواماً كعمود النور يعشي الأبصار ويفتن الناظرين هيفاء تتمتع بروعةٍ من الجمال إلا أن البؤس لم يظهرها بروعتها البهيجة أما اليوم فقد أضفت عليها النعمة فأبرزتها في أجمل روعةٍ تباهي بجمالها الحسناوات التي لا يوجدن إلا على ندرةٍ بلغت هيفاء الخامسة عشرة فكانت غصناً مخضوضراً متدلياً بثماره وكله كنوزٌ وسحرٌ كانت ذات مساءٍ تنظف إحدى غرف سيدتها وتلمع التحف لأنها في ذلك الوقت آمنة السرب من أن يدخل عليها رجلٌ حرامٌ ففوجئت بدخول زوج سيدتها فبهتت فكانت هيفاء غير متحجبة لأنها آمنةٍ ففتن رب العائلة وسيد البيت بعد أن نظر نظرةً حولته صبّاً مفتوناً بذلك القوام وفتنة المرأة تسحر الرجال ففي كل عضوٍ من أعضائها موسيقى سحرٍ وفتنةٍ وصوتها المنغَّمْ الذي هو أبلغ من نغمات الوتر يسمر الرجال حتى قال بعض الفلاسفة إن الأنثى هي الموسيقى الناطقة لم يتصور أن أنثى من طبقة فقيرة كادحة قتلها الفقر وعراها وأمات أحاسيسها وشعورها تبلغ إلى هذه الروعة والفتنة ونسيَ أن الجمال هو بيد من خلقه وكوَّن هذا الكون فانتبهت هيفاء فأجابته بأدبٍ سيدي ليس لديَّ حجاب لأستتر عنك فتراجع خجلاً وكانت زوجته تثنى عليها وتثني على عملها الدؤوب الذي أراحها وجعلها أن تتفرغ للقراءة

ولزوجها ولا بنائها ماذا يصنع لقد تغلغل حبها وفتحت أنامله قوةً سرت منها إشعاعةٌ إلى قلبه لأنه سمع ذلك الصوت المنغم وشعر كأنه يعيش في أجواءٍ من الغرام ودنياً لم يعرف ما فيها من معانٍ وأسرار فتسمر مدةً طويلة وعيونه مسمرةٌ في ذلك القوام ونظراته تكاد تحيرُ في وجه تلك الفتاة تراجع قليلاً وخجلت هيفاء من هذا الموقف وهي لا تشعر ماذا وراء هذه النظرات لأنها عاشت في براءةٍ وطهرٍ بعيدةٍ عن ما في المدن من ختلٍ وزيفٍ فانسلت من الغرفة لتترك له مكانه وذهبت إلى غرفتها المعدة لها فظل سامر يضرب أخماساً في أسداس وفي ذات مساءٍ جاء بسوار ذهبي فنادى هيفاء وقال لها أريد أن أكافئكِ على إخلاصكِ في هذا العمل الذي أحاول مستقبلاً أن أعفيكِ منه وأن تعيشي سعيدةً وقدم لها السوار إلا أن هيفاء كانت متأدبةً فأجابته بأدبٍ وخلق من اللياقة يا سيدي أن تكون هذه العطية الثمينة عن طريق سيدتي رباب وأنا أشكر لك عطيتك وتقديرك لي وإن دل على شيءٍ إنما يدل على أخلاقك واحسانك للفقراء تلعثمت الكلمات على شفتي سامر وكان يعيش على موقدٍ من وهج الغرام وخشيَ أن ينكشف الستار فتقوم زوجته بإبعاد هيفاء أو طردها فذهب إلى زوجه وحدثها بما جرى له مع هيفاء وقص عليها قصته فأجابته زوجته لقد كانت هيفاء مثال الأدب وهي كانت أصوب منك في عرضك هذا الأسلوب عليها وأنت لا حق لك أن تذهب لامرأةٍ أجنبيةٍ بعيدةٍ عنك فبعد أن خرج زوجها قامت رباب وأحضرت هيفاء و ألبستها السوار فقالت لها لقد زدتِ عندي حباً وارتفعتِ منزلةً ودرجات فقد أصبحتِ يا هيفاء بنتاً من بناتي لو أصابتكِ شوكةٌ أو مسكِ ضرٌ أصابني، الأيام تمر وتتبعها الليالي وسامر يزداد لهفةً وشوقاً لهيفاء يحاول ان يظفر ولو بنظرةٍ أو بمشهدٍ كذاك المشهد الرائع الذي تكشفت له على شاشته محاسن هيفاء وأنوثتها الفتانة فجاء ذاتَ مساءٍ وزوجه في مهمة خارج بيتها فكانت فرصة سعيدة فنادى هيفاء فلبتهُ ووقفت أمامه وهي كالبانة المخضوضرة لا يبينُ منها إلا ملابسها فتنهد وقال بصوتٍ عليل صبٍ رقيق هيفاء أصبحتِ حبيبتي وقد أحببتكِ منذ النظرة الأولى

حينما رأيتك في ذلك المشهد الرائع الفتان وأنتِ تُلمعين النجف والتحف وقد برزت مفاتُنكِ بعيني فهل تذكرين؟ خجلت هيفاء ولم تنبس ببنت شفة وأستطرد سامر بعد زفرةٍ تتبعها زفراتٍ ما رأيكِ في تخطيط مشروعٍ يسعدك ويسعد أخاكِ رمزي فصمتت هنيهة ثم قالت يا سيدي ما هو المشروع فأنت من كل خيرٍ قريب سقطت هذه الكلمات الناعمات على قلبه كما يسقط الطلُّ على ثغور الزهور، وقال: الزواج يا هيفاء منكِ فأنكِ قد ملكتِ فؤادي وإذا لم أتزوج منكِ ستتحطم حياتي وتموت تجارتي.

هيفاء: كلي دعاء لك بالتوفيق والنجاح في طاعة الله الزواج سنة الله ورسوله ولكن وصمتت هنيهة ثم أردفت بشجاعةٍ وحريةٍ هذا خلاف وفائي لسيدتي رباب لم أتِ هنا لأكون ضرةً لها أو لأحول حياتها من نعيمٍ إلى جحيمٍ.

ولكن أين الطريق وأين المخرج ليصل إلى حبيبته فأصبح بين اثنتينِ الزواج أو تدمير حياتهِ ثم فكر ملياً وتراءت له خيالات و طيوف هل يفاتح زوجه رباب لا.. لا.. أخشى أن تبعدها أو تقسو عليها أو تقتلها وتلامعت بعينيه أنوار قوام هيفاء حين نظرها في ذلك المشهد الرائع فتنةً ماثلة تختطف الأبصار حيث جلتها النعمة جمالاً زادتها جمالاً إلى جمالها فكانت هذه النظرة الفاتنة قد حولت حياتي إلى حياةِ عذابٍ ولكنها حياة نعيم ما أعذب الحب وما أقساه، لمست منه زوجه رباب حياة لم تألفها من ذي قبل وقطوباً من أسطرٍ تقرأ حروفها على خطوط جبينه وبوحاً يلتمع في عينيه كل هذا لم تألفه وصدوفاً في حياته الزوجية فبدأت تلاطفه لتفتح قلبه ماذا أصابك حتى تضببت أفاق حياتك ونشرت عليها قطع من الليل فصمت سامر واغرورقت عيناه بالدموع ثم أشار بأنامله كأنه يكتب حروفاً وما هذه الحروف الا حروفٌ متقطعةٌ تتكون من هيفاء الحبيبة قرأت زوجته السر في تلك الأحرف وترجمتها بكلمة عاشق.. عاشقٌ مَنْ لا يزال السر غامضاً فبات الزوجان تلك الليلة على فراش القلقِ والسهاد فعندما أصبح الصباح جاءت رباب لهيفاء تبثها همومها هنا هيفاء كان لها دورٌ من الصمت

والحيرة أترفع الستار لتخسر سيدتها ما يدور حولها بمحيطها الصغير أم تدع السر مكتوماً ولكن جوابها كان دموعاً يقطرن من عينيها ورقة فاضت على تقاطيع وجهها وغمرتها حيرةٌ وصمتٌ فشعرت رباب بذلك الحب الفياض والوفاء فخرجت من بيتها وما لبثت هيفاء على مقعدٍ خشبي مستغرقةً في هواجس فإذا تفاجئ بدخول سامر فانسلت لتأخذ حجابها فزاد قلبه شغفاً وهياماً.

لم يدر في خلدها أن يعود سامر في هذه اللحظات التي هي شوطُ عملهِ فدعاها سامر هيفاء فبعد أن التفَّت بحجابها جاءته لتقف بين يديه وقفة المتأدب الخاضع لم ينادها باسمها كما تعودت بل هتف بكلماتٍ يضمخها الحب والشوق حبيبتي تركت حياتي العملية وجئت لأحظى منكِ بنظرةٍ وبكلماتٍ تخفف عني آلام الحياة إن لم توافقي على مشروع الزواج (قراني منكِ) فسوف أهيمُ في الصحاري كما هام قيسُ بن الملوح وأنتِ المسؤولة عن قتلي وأحاسبكِ غداً.

هيفاء: رجفت واهتزت لهذه الكلمات كما يهتز الغصن بيد العاصفة وكادت أن تقع على الأرض لولا أن تمالكت وشدت أجنحتها المتكسرة وقالت بلطفٍ في همساتٍ ونبراتٍ رقيقةٍ بدأت يا سامر أشاركك الحب حباً بحب ولكن وفائي لسيدتي سدٌ يحول بيننا وفي هذا الصباح جاءت سيدتي تبث همومها ارتعت لها ولكنني لذت بالصمت والحيرة وكانت لهذه الكلمات في قلب سامر فتحاً يلجُ منه إلى قلب هيفاء وكان في يمينه خاتم من الذهب وعقد من اللؤلؤ قدمهما لها إلا أن هيفاء أجابته بما أجابت عندما دفع لها السوار فصمت سامر ثم قال لهيفاء ألا أفاتح زوجتي بالزواج منكِ.

قالت: هيفاء الذكية التي تنظر إلى الحياة بنظراتٍ ثاقبة بعيدة لا يا سيدي أخشى من سيدتي الكيد والعاقبة غير الحسنة لأنها أنثى والأنثى أشد ما عليها أن يتزوج زوجها عليها.

سامر: إذا ما المخرج وأنا كلّي لهفةٌ وشوقٌ لكِ يا هيفاء كلما أبصرتُ نظرةً منكِ أنعشت حياتي.

هيفاء: صمتت طويلاً ثم قالت.. سامر أيها الحبيب لقد أثرت عواطفي وأهجت الكامنَ من الشوق وداعبت أحلامي ولكنني لن أحيد عن طريق الإسلام والشرع الذي رُسِمَ لنا أنا أنثى يثيرني الحب كما يثير الرجال ولكنني أسير على طريق الحق ولن تبصر مني نظرة أو تحصل على قبلةٍ إلا من طريق الزواج ووفائي قد يقتلني ويذهب بحياتي في سبيل محافظتي على شعور سيدتي رباب دعني يا سامر لعلي أجد مخرجاً يوصلنا ويجمعنا فنطفئ هذا اللهيب قالت هذه الكلمات وقد أنسلت إلى غرفتها وذهب سامر إلى عمله فجاءت رباب وكل شئ مهيأ لها ولكنها ما عادت كرباب الأمس التي لا تفارق شفتاها البسمة إنما أنتثر على وجهها طيوف الحزن وتضبب في عيونها أشباح المستقبل المجهول.

قالت هيفاء لرباب سيدتي لوددت أن أذهب إلى كوخنا صباحاً لأعود ظهراً فماذا تصنعين لقد مر عام على موت أبي وأمي فهاجت بقلبي الذكريات فجن فؤادي لعلي أخفف من هذه الويلات عندما أسكب دموعي في وحدة خرساء.

رباب: لا يا هيفاء أخشى عليكِ أن تذهبي وحدكِ هناك وقد قطن إلى جانب كوخكم فرد شرير فأخشى عليكِ منه ليخطفكِ فلا تعودين.

صمتت هيفاء لتقرأ هذه الأحرف التي نطقت بها سيدتها فتمتمت هذا قريبٌ ألم ينهب كوخنا وضمه إلى بيته ولكنني يا سيدتي أشعر بضيقٍ يكادُ يقتلني برغم هذه النعمة وهذا الدلال.

رباب: هيفاء ما كنتِ قبل هذا اليوم تشعرين بهذا الشعور فماذا حدث أَلما أصاب سيدتكِ من همومٍ انعكست على فؤادكِ. هيفاء: لعله.

رباب: لا يا هيفاء أنتِ تبقين هنا وتمثليني بعد حياتي سوف أوصي

على سامر أن يتزوجكِ لتكوني ربة هذا القصر وتربي أبنائي لا أسمح لك بالذهاب إلى ذلك الكوخ أتغامرين بحياتك تنهدت هيفاء لتسكب تلك التنهيدة في دموعٍ حراء فوجئت رباب بهذا البكاء ولم تفسر بواعثه تلك الذكريات بل قالتْ مالذي أبكاكِ وأنتي كالوردة النديانة في ربيع الحياة وأنا سأودع الحياة لا تبكي يا هيفاء.

هيفاء: ترددت في رفع الستارة لتشاهد سيدتها فصول القصة التي بدأها زوجها سامر غير أنها شعرت بفرصة ذهبية لتقص على سيدتها الأدوار التي قام بها زوجها ووفاء هيفاء ثم أردفت لقد ضاقت بي الأرض على رحبها سأترك أخي أمانة عندكِ يا سيدتي وأنطلق إلى كوخنا لأعيش فيها أياما لعلي أغادر هذه الحياة لأستريح من تعبها ومن دروب شقائها صمتت سيدتها فظلت في حيرةٍ أتضحي بمن واستها وفضلتها عن نفسها أو تبقي هيفاء في بيتها وهي تخشى أن تصبح ضرةً لها تشاركها الحياة الزوجية وما تدري رباب لعل زوجها يستأثر بهذه الوردة النديانة فينصرف عنها لا سيما وهذا الزواج قد أنبعث عن هيامٍ ملك حواسه وعواطفه و أعادت هيفاء على سيدتها طلبها تستأذن منها وتأخذ معها بعض المتاع والطعام ثم لمع في عين رباب بارقٌ ومر هاجسٌ ينشر عليها المخاوف أخشى من أن يذهب سامرٌ ويغتنم هذه الفرصة الذهبية فيذهب لها في الكوخ فيخلو له الجو فيمكنه من زواج هيفاء لا لم يعرف كوخها ولم يسبق له الذهاب إليه فاستعادت لها الذكريات شريطاً أمام عينيها لا بل ذهب اليه مرتين عند موت أبيها وامها.

هيفاء: وداعاً يا سيدتي وإلى اللقاء

وأنسلت هيفاء من ذلك القصر كالطيف أو كالخيال فتركت رمزي تحت رحمة سيدتها وابنائها جاء سامر فلم يرى نفحات تهب عليه من أفق تلك الحبيبة سأل عنها بلهفة فأجابته رباب لا أعرف عنها شيئاً فقد خرجت من البيت دون علمي وتركت أخاها.

جاء سامر يتحدث مع أخي الحبيبة فأجابه أختي ذهبت إلي كوخنا، لماذا؟ صمت رمزي ولاذا بالبكاء لم يهدأ لسامر قرارٌ فلم يهنأ بنومٍ أو طعامٍ فخرج من البيت كئيباً وطيفُ هيفاء ماثلٌ في عينيه ويسري في جسمه من كلِ ذرة من ذراته فهو يسيرُ دليلهُ الشوقُ وريَّ الحبيبِ هما الدليلان على محل حبيبتهِ فإذا بقلبه يشير إليه هذا مقر الحبيبة هذا هو كوخها يكاد أن يسجد على الأرض طرق الباب ففزعت هيفاء من الطارق فأجابها حبيبكِ يفتش عنكِ فلو كنتِ في قلب القمر لصعدت لكِ أو كنتِ في قعر الأرض لغرت إليكِ أُفتش عنك حواشي الحياة فكيف بي وإذا أنتِ قريبة مني لم ينتظر سامر أن تفتح له الباب فأخذه الشوق المبرِّح إلى دفع الباب وهي قبل أن تأخذ حجابها مكنته لحظات زادته شوقاً على شوق لكنها سرعان ما تناولت حجابها والتفت به وجلست معه وطلب منها الرجوع للقصر أو يأخذ لها بيتاً لتعيش فيه أليس حراماً عليكِ أن تعيشي وحدكِ في هذا الكوخ وأن تأمني على عرضكِ عندما يجن الليل فبكت هيفاء فخطت له أحرفاً تفسرها عبرات تتقطع أنا في الصبابة أعيش على جمرها كما تعيش أنت في قلبها ثم تنهدت وقالت ماذا أصنع والوفاء الذي نبت في قلبي حباتٍ ثم تحول إلى سد ضخم يحولُ بيني وبين الزواج منك.

سامر: ألا تخشين على نفسكِ أن تبيتي وحدكِ في هذا الكوخ في هذا الليل وحولكِ سباعٌ تفترس البشر.

هيفاء: حبيبي سامر ما قلته حق، لقد تسبب هذا الشرير في قتل أبي وأمي حيث اغتصب كوخنا ولم يترك لنا إلا هذه العشة.

سامر: إنني أخشى أن أطيل الجلوس هنا معكِ فيفترسني ويفترسكِ هذا الشرير الظالم فقومي معي لاجعلكِ في بيتٍ تعيشين مع أخيكِ والزواج مرحلة ندير فيها الرأي.

هيفاء: لا يمنعني منك الزواج إلا وفائي لسيدتي وان بدأت تنحسر مودتها لي عندما اطلعت على فصول قصة حبنا وتنهدت تنهد من فارق

الحياة ثم غابَ كأنهما لا يعيشانِ على رقعة الوجود وغرقا في أفقٍ من اللاشعور في سمرٍ من الحب والغرام وفي مناجاة القلوب للقلوب والعيون للعيون ففوجئا بأحد حراس الشرير وجنوده يخططون لإدخال ما تبقى من الكوخ في مخطط قصره ليتفادى النتوء الذي ظهر في قصره فهجم بجنوده إلا أن سامر وهيفاء خرجا عندما أزال من ناحيتهما طرفاً من ذلك الكوخ لأنه مكونٌ من سعف النخل فهو لا يحفظ من سطو اللصوص ولا يقي قراً ولا زمهريراً فألقى كفه في كفها فانطلقا كسهمي نور لا يلويان على شئ فلاحت للشرير نظرة من هيفاء فأمر جنوده أن ينطلقوا لإلقاء القبض عليهما غير أن هيفاء وسامر دخلا في منعرجات طرق المدينة وقد بدأ يلفها الشفق وينسكب عليها فما استطاع الجنود أن يعرفوا اثر خطواتهما فيتبعوهما لإنَّ المدينة لفها أطياف الظلام وجاء إلى الشرير رسولٌ من سيده يدعوه دعوة مستعجلة فذهب إلى رئيسه ورجع الجنود بخفي حنين لم يعثر لأثرٍ على هيفاء فمضى فنجا سامر مع هيفاء من خطرٍ أحدق بهما وكادَ يقضي عليهما وكان يسيران جنبا لجنب تحدث سامر بكلمات حبٍّ تقرِّبُ وترضي هيفاء للزواج من سامر، فقال سامر هيفاء لقد نجانا الله من براثن هذا الظالم لأحقق أمنيتي وأملكِ المخضوضر كالربيع وهذا تعويض لك لما أصابكِ من مصائب تلاحقت في أيامٍ لا تزيد على ثلاثة أيام حيث فقدت أملكِ و أبيكِ وهما أثمن كنز في حياتكِ سأعرض عليكِ قبل أن أعيدكِ الى البيت مشروعاً غير مشروط بالزواج أن تقيمي وحدكِ مع أخيكِ في شقة مستقلة لتهنئي بحياةٍ مستقلة صمتت هيفاء وغرقت في هواجس وهموم حتى لكأنها في خضم بحر تتقاذف بها موجات الهواجس أتعودُ لسيدتها ولا تعلم ماذا وراء هذه الحياة من ضباب بعد أن رفعت لسيدتها الستار و هل الأفضل أن تذهب إلى شقة مستقلة تعيش فيها بعيدةً عن الهموم وفي أخر المطاف أعطت هيفاء موافقتها أن تقيمَ في شقةٍ مستقلة فشعر سامر بسعادة وحلمٍ طالما راود أجفانه فذهب بها إلى شقةٍ وقد أرسل الليل ذيوله وغطى المدينةَ ببردته الحزينة الداكنة غير أن سامر لا يشعر بهذه الظلمة وهو يعيش في

فرحةٍ وحياةٍ مخضوضرةٍ متفتحةٍ كما تتفتح الورود في ضوء الفجر أجلس هيفاء وذهب ليأتي لها بطعامٍ ولم يدر في مخيلته أخاها ليأتي به لها فسامر كله أفقٌ ضاحكٌ لا يحس بما خلفه أو أمامه إلا بهيفاء التي ملأت قلبه وأخذت بإحساسه فهو مسمرٌ لا حراك له إلا بها ولكن رباب أفاقت على هواجس تضبب الدنيا في عينها وترسلُ مع قطع الليل المظلم قطعاً تهدد سعادتها وتنشر في سماء بيتها كآبة مريرة أين ذهب سامر وكيف مضى هزيعٌ من الليل ولم يأتِ إلى بيته أهام بهيفاء ولم يرها فأصبح كقيسٍ لا. لعله يسمرُ معها دخلت رباب في حياةٍ هستيرية وفقدت استقرارها وحتى انطوى الليل ولم يأتي سامر وكادت رباب أن تأتي إلى ذلك الطفل لتنتقم منه غير أنها ترددت ليس لهذا الطفل ذنبٌ لا بل ليس لأخته هيفاء جرمٌ إنما اقترف الخطيئة زوجي سامر فهو أحق بالعقاب سأنتقم منه إن صمم على الزواج من هيفاء. هيفاء التي ضحت من أجلي بسعادتها فلا أكون إلا وفيةً لها وأبادلها وفاءً بوفاءً لا أدري ماذا أصاب قلبي إنني أحس بأنه يثور كثورة البراكين ثم يخمد ويصمت كصمت المقابر لم تنم رباب ولم تداعب أجفانها أنامل الوسن وظلت في جحيم ملتهب وثورة عارمة من الحزن والأسى وعند الظهر جاء سامر إلى بيته فاستقبلته زوجه كما يستقبل الليل المدينة في عاصفة هوجاء تدمر القصور وتقصف الأفنان وفي ثورتها الهائجة سقطت على الأرضِ ونقلها زوجها إلى أحد المصحات ولكنها فارقت الحياة وانطوت صفحة من حياتها المأسوية التي تحولت من سعادةٍ إلى حزنٍ، إلى نهايةٍ مشجية باكية.

٢٠/٥/١٤٢٤ هـ
٢٠/٧/٢٠٠٣ م

الشبح السابع

قال حمدانُ وهو يرتدي ثيابه الرثةَ الممزقة لزملائه الذين يعيشون معه في الكتاتيب وكان المعلم لهذا الكتاب يعلِّمُ حمدانَ دون أن يأخذ منه رسوم التعليم، ولكنه يستخدمه في مآربه وكانت هذه فرصةً له للهروب من الكتَّاب وهو يتحدث مع زملائه إنني أشعر بمرارةٍ لما ينتابني من جوعٍ ويُتمٍ وذلٍ واضطهاد حتى كانت فرصة التعليم التي أتيحت لي بإشغال الوقتَ بقضاء مآرب معلم الكتَّاب ثم ذهب إلى كوخهِ المكون من سعف النخل الذي لا يقي من بردٍ ولا حرٍّ وجلس مع أمه وتنهد حتى كادت روحه أن تذوب مع الزفرات وقال لأُمهِ يا أُمي أنا غداً لن أذهب إلى الكتَّاب فأجابته أُمهُ كيف لا تذهب وإنَّ آمالي معقودةٌ عليك فأجابها حمدانُ إني أذهبُ للكتَّاب لأضيع من العمر وأُهرِقَ من عمري ساعاتٍ في خدمة المعلم وزوجته ولا أستفيد حتى من فكِ الحرف.

نام حمدانُ مع أمه في كوخه المظلم وعندما أشرق الصباح وفتحت الشمس أجفانها لترسل الدفء والحنان على الوجود خرج حمدانُ ليبحث عن عملٍ له والتحق بطبقة عمال البناء الذين يعملون في ميدانِ جهدٍ متعبٍ ويتصبب منه العرق ولكنه عرق الأحرار وجهد الصابرين فاستطاع حمدان بفاتحة عمله الجديد أن يغذي نفسه وأمه بالرغيف وأن يبدِّل ملابسه الممزقة بملابس تغطي جسمه وأستمر في ذلك وأُمهُ تضمه بين طيات أجفانها وتخشى عليه من صروف الزمان وويلات الحياة وفي كل مساءٍ قبل أن يستسلما إلى الكرى تلقي عليه توصياتٍ وإرشاداتٍ ليستمر في طريقه

المستقيم ولكن معلمه فقد منفعةً لم يكن في حسبانه أن يفقدها في هذا الظرف فطلب من طلابه أن يبحثوا عن حمدان وينقلوا له طلب معلمهم بأن يزوره ولو مرةً واحدةً فتسابق الطلاب لتلبية طلب معلمهم وقالوا لحمدان إن المعلم يشعر بخسارةٍ لتغيبك فهو يبحث عنك ويتفقدك وقد أرسلنا لنبلغك طلبه أن تقوم بزيارته. لم يعبأ حمدان لهذه الرسالة وهذا الطلب لأنه يشعر بما يرمي إليه المعلم من غاية طلبه هي الخدمةِ التي كان يؤديها حمدان بلا ثمنٍ لم تهدأ عين المعلم ولم يسكن روعه فعاود الطلاب وأخبروه بما أوصلوه له غير أن المعلم في أسلوبه الوحشي لم يتردد أن يطلب من طلابه أن يلقوا عليه القبض ويأتوا به إليه ولو كان مقيّداً مغلول اليدين لم يكن حمدانُ ليطلع على ما خبّأه المعلم وطلابه حتى يأخذ حيطته ففوجئ وهو في طريقه إلى كوخه بزمرةٍ من الطلاب تهاجمه بالعصي وفي أيديهم حبال ليقيدونه ويسحبونه فزعَ من ذلك حمدانُ وسألهم لماذا وهل لهم ثأرٌ أو يطلبونه بنقودٍ فكان جوابهم الضرب بالعصي ونحن ننفذ أمراً أمرنا به المعلم لأنك لم تستجب له من ذي قبل أيقن حمدان بهذه المكيدة فما استطاع التفلُّت من أيديهم واقتادوه إلى ذلك المعلم الذي تحول إلى وحشٍ ومنذ وقعت عينه على حمدان انهال عليه ضرباً وشتماً وهو مقيد لا يستطيع الحراك ولا الدفاع عن نفسه وبكى حمدان وقال ليس لديَّ حولٌ ولا قوة إلا إني أفزعُ إلى خالقي وأشكوه إليه ماذا تريد مني أيها المعلم فقال المعلم أنت سرقتني وقد ألقيَ القبض عليك متلبساً بجريمتك وسوف أسلمك إلى أحد الرؤساء لتأخذ جزاءك وكانت صلته القوية التي ينفذ منها أحد أبناء الرئيس الذي يتعلم في كتاتيبه فاستغل هذه الفرصة لمكانته عند الرئيس لينتقم من حمدان فأودع حمدان السجن بسعي مُرَّبي الأجيال ومنشئ النشء إن معلماً كهذا المعلم سينشئ جيلاً فاسداً لأن المعلم تنطبع روحهُ في الطلاب فالطالب صورةٌ مصغرةٌ من معلمه.

حاول الرئيس أن يرضي طموح المعلم ولم يفكر في الإنصاف

ويحمي العدل وبقيَ حمدان مطموراً بالسجن وجروحه تنزفُ دماً لِما آلّم به من ضرب الطلاب وضرب المعلم الحاقد ولم تضمد جروحهُ وليس له جرمٌ اقترفه إلا أنه ترك خدمة المعلم حيث لا تعود عليه إلا بالعناء والشقاء وذهب للكسب ليعيل أمه البائسة الوحيدة التي لا تملك في هذه الحياة غير حمدانٍ فهو أثمن ما عندها في هذه الدنيا وبقيَ في السجن والألم والجروح والظلم يأكلون من جسمه. مضى عليه قرابةَ خمسةِ أيامٍ ولم ير بصيص أملٍ يشرقُ إليه من كوةٍ ليسعفه ذلك الأمل ويخلصه من هذه المحنة الظالمة الذي كان هو ضحية المعلم تنفيذاً لرغبته التي ساعده على تنفيذها ذلك الرئيس ليس له في الحياة أملٌ أو جاهٌ أو مالٌ إلا أمه التي هي أغلى كنزٍ وأثمن ذخرٍ عنده ولكن أمه عندما اختفى عنها أبنها ولم تره في ذلك المساء كما عودها بقيت تلك الليلة ساهرةً لم يداعب جفنها طيف الكرى ماذا تصنع وهي الفقيرة البائسة الوحيدة التي ليس لها تدبيرٌ ولا دليلٌ إلا الله وفي صباح اليوم الثاني كانت أم حمدان تعرفت على طالب من الطلاب كان زميلاً لحمدان ويأتي معه إلى ذلك الكوخ فهداها فكرها أن تذهب لذلك الطالب لعله يروي أوامها أو يعطيها نبأً من أنباء حمدان تعيش به وتعلل نفسها فوجئ ذلك الطالب بأم حمدان هل عندك خبرٌ عن حمدان لقد غاب عني منذ يومين لم يتردد الطالب أن يشرح لها فصول المأساة وكيف جند المعلم طلابه لأسره واستعمال نفوذه عند الرئيس لزج حمدان وتصويرهِ سارقاً من السُّراق ألقي القبض عليه متلبسا بجريمته فزج به في السجن بعد أن أذاقه المعلم والطلاب أسواطاً حتى سالت الدماء من جسمه هنا والدة حمدان عصر قلبها الألم ورفعت يدها تشكو إلى خالقها وتلجأ له طالبةً منه أن ينتقم لابنها من ذلك المعلم الوحشي وبعد لحظاتٍ قالت للطالب ألا تدلني على السجن لأذهب إلى ابني لأودعه قبل أن يفارق الحياة.

الطالب أحمد: قال لها لا أعرف السجن وأين موقعه وأخشى من المعلم أن يفعل بي ما فعل بحمدان وإخبارك بفصولِ هذه القصة المأسوية

لعلي أعيش على هاوية من الخطر فهذا المعلم لا تعرفين نفسيته الظالمة التي فيها ألف شيطانٍ وشيطان.

فأطرقت أم حمدان وقالت: حسبي الله الواحد القهار الذي ينتقم من كل ظالم ومضت إلى بيتها وبعد خمسة أيامٍ قضاها حمدان بالسجن جاء حمدان إلى أمه لتستقبله جثة هامدة لا حراكَ بها وكان ذلك اليوم على أم حمدانٍ يومٌ معصوصب تمنت أن تفارق الحياة فتقدمت أيدي المحسنين لموارة ذلك الجسد الطاهر المظلوم ونظرت إلى الحياة بمنظارٍ أسود يعكس أمالها الذبيحة ومستقبلها الذي مات بموتِ أبنها حمدان حيث صان ماء وجهها بما فتح عليها من حياة الكفاف وصونها عن ذلة الناس واليوم عادت صفرة اليدين أين حمدان لقد راح ضحية أطماع المعلم وختله إنني لا أستطيع أن أنتقم منه وأنا البائسة الفقيرةُ الضعيفة فباتت تلك الليلةُ في ليلةٍ سوداء وأطياف الأحزان تعومُ في عينيها وصورة ابنها تطوف في الكوخ كما تسمع أنغامه ونبرات صوته وكأنها تناديها وتفزعُ من منامها وكأن ابنها حمدانُ يهتف بها فترد الجواب ولا مجيب هناك وكانت تردد ابني حمدان قتلوك ليس لي سلوةٌ في الحياة غيرك وقد ذبلت السلوةُ وغابت عن عيني، إبني حمدان لا أستطيع بعدك البقاء ليس لي في الحياة مطمعٌ أو رجاء يبست آمالي فهي كأوراقٍ اصفرَّت وذرتها العواصف وبددتها في صحارى موحشةٍ قاحلة ابني حمدان إن كوخي ليس لي فيه مقرٌ فأنا كسفينةٍ مزق قلاعها وهي في عصف موجٍ وتحت ريحٍ عاتٍ يا الهي ساعدني وقوِّ أجنحتي المتكسرة وألطف بي يارب وهيئ لي زمرةً من المؤمنين يحضرون في بيتي ليشاهدوا موتي ويشيعوني إلى مثواي الأخير فإنني لا أطيق الحياة بعد حمدان هتفت أم حمدان بإحدى جاراتها وكانت عندها وقصت مأساتها من ألفها إلى يائها وقالت لتلك الجارة الوفية أطلب منكِ أن تسجلي هذه المأساة في دفتر الحياة كما تجبري المحسنين عن موتي ولا تخرجي من عندي حتى تشهدي موتي فأني مفارقة هذه الدنيا أستودعكِ الله ونفذي ما

أوصيتك بها وداعاً.. وداعاً واستسلمت للموت. فإنك لتعجب من سيرة منشئ أجيالٍ وباني شباب ومعد مستقبلا واعداً إنها لتنعكس هذه السيرة التعليمية في خلق جيل فاسدٍ ومجتمعٍ منحلٍ لأنها سيرة مربي أجيالٍ ظالمٍ ورئيسٍ غير منصفٍ ولا ناظرٍ إلى حياة مجتمعه وبائسيه هكذا تختم الحياة.

٢٦/ ٥/ ١٤٢٤هـ

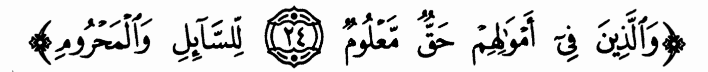
٢٦/ ٧/ ٢٠٠٣م

الشبح الثامن

في ليلةٍ قاسيةٍ والجو مبطنٌ بالغمام زاخر بالأمطار فتحت السماء شدقيها بأصوات الرعد وأضواء البروق وكان هناك بائسانِ يدعيانِ رمزي، وفتحي يتحاورانِ في كوخٍ يكاد سقفهُ يسجدُ عليهما وبدأ رمزي يتحدث لفتحي عن حياتهما البائسة وما في المجتمع من طبقيةٍ لا ترحم الفقير ولا تعطف على البائس اليتيم فأجابه فتحي إن الحياة فيها تغابنٌ إلى درجة الإفراط فترى صاحب القصر الذي يبذخُ ويهرق أموالهُ في سبيل الشيطان ولا يوقظه ضميره ولا تأخذه عاطفةٌ حنونةٌ يمد ظلها على بعض هذا المجتمع البائس الذي قسمٌ منه لا يملك حتى قوت يومهِ وشريحةٌ أخرى أقعد بها المرض والشيخوخةُ الواهنة والفقر حتى ألصقتها بالتراب فهي إن تسل عنها فهي ميتةٌ أُجِّلَ إلحادها فهي كقبورٍ تمشي على الأرض ثم تنهد رمزي ليرد على فتحي قائلاً أصبت يا أخي كبِدَ الواقع حيث شخصت الداء الذي يفتكُ بمجتمعِ الإنسان فهل لديك وصفةٌ ناجعةٌ يلتهم منها أفراد البشر جرعةً لتعيدهم من بشرٍ طائشٍ إلى إنسانٍ رحيم. صمت فتحي هنيهةً فأجاب رمزي نعم وجدتُ الوصفة إنها وصفةٌ ناجعةٌ ليس يماثلها في صيدليات العالم وصفةٌ كما هي في صيدلية الدين الإسلامي إن هذه الوصفة لو أَخَذَتْ منها البشريةُ جُرعةً لتبدل هذا العالم من عالمٍ وحشيٍ إلى عالمٍ إنسانيٍ وهل تعلم أن الدين الإسلامي خطط في منهجهِ التشريعي حقوق البشرية وضمن حقوق الأفراد وخطط المنهج المالي على أسسٍ تضمن حق أفراد البشرية بشكل لم يضمنها دستورٌ أو نظامٌ في هذه الدنيا منذ وجد هذا الكوكب حتى

يوم الناس هذا فالدستور الاسلامي يقسم المال قسمةً عادلةً فلو طبق لما رأيت فقيراً في هذه الحياة فهذا كتاب الله ينادي البشرية بتطبيق العدالة المالية حيث قال عزَّ من قائل:

بسم الله الرحمن الرحيم



صدق الله العظيم

يا تُرى لو طبق هذا المنهج التي أشارت له الآيةُ الكريمة ونظمته هل ترى بائساً أو فقيراً ينامانِ على سغبٍ ويعيشانِ و أشباح الفقرِ تنهش في أجسامهم وتميت أرواحهم من الذل والفاقةِ والإهانة ولم يقتصر الدين الإسلامي على العدالة في منهجية تقسيم المال بل كان في منهجيته التي رسمها تخطيط لجميع أفاق الحياة السياسية والاجتماعية في الأفراد والجماعاتِ وفي الحياةِ الزوجيةِ وبين الأب و أسرته وبين الأبناء والآباء فهو منهجٌ متكامل التخطيط جاء لسعادة الإنسان وإنقاذه من عبوديته وذله إلى تحريره وكرامته وتوجيهه إلى أن يعيش كريماً لا يسجد لاحد ولا يعبد أحداً إلا خالقه ورازقه فأنقذ الإنسانية من هذه الحياة المظلمة الشرك بالله إلى آفاق ضوئية التوحيد وكان المنقذ الرسول الأعظم محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله وسلم الذي بعث رحمةً للعالمين فضمن حقوق كل فردٍ من الإنسانية حتى ولو كان كافراً إذا عاش تحت ظل لواء الإسلام ولم يتمرد عليه أو يكد له ضمن له هذا الحق فيعطى من بيت المال إذا كان فقيراً ولو ظل كافراً فكيف بالمسلم.

فأجابهُ فتحي لقد أثلجت فؤادي وأطلعتني على حقائق ما كنتُ أعرفها عن هذا الدين العظيم ولماذا البشريةُ لا تطبقه فتحوز على السعادتينِ سعادة الدنيا والآخرة.

رمزي: لقد ذهبت بك المذاهب يا فتحي وضلت مطيتك في بيداء لا

حدود لها أتعرف الأسباب في عدم تطبيق مبادئ هذا الدين وعدم العمل بدستوره لأن السلاطين وذوي المصالح من الطبقة الأرستقراطية والشخصيات الذين لا تهزهم المبادئ ولا يعيشون إلا لمصالحهم ويرقصون على قبور الموتى ويقهقهون في المآتم ويقفون سداً منيعاً في تطبيق هذا المبدأ الإسلامي خشيةً على مصالحهم الشخصية لأنهم يعيشون كالديدانِ يمتصون من دماء الفقراء والضعفاء كما تمتص البعوضةُ الدماء من جسم البشر ولهذا السر الخفي لا يطبّقون من منهجية الإسلام إلا لفظهُ أما معناه فلا تجد له ظلاً من الواقع كما يقرأون القرآن لفظاً أما معانيه فلا يتدبرونها ولا يطبقونها إنما يستعملونه كالتعاويذ ويبتعدون عنه كمنهجٍ متكاملٍ للإنسانية فيه جميع الحقوق والمبادئ المثلى لكل فردٍ لهذه الإنسانية هنا انتفض فتحي كأنه مذعورٌ وأخذ يمسح بيديه عينيه كأنه في حُلمٍ أو خيال فأجاب رمزي كنتُ في ثباتٍ عميقٍ فهزتني فاستيقظتُ على صحوةِ رؤًى واضحةٍ كشفت لي بصيرتي على الواقع الملموس وكأني بعثت للحياةِ من جديدٍ أحس وألمس وأرى وقد لمستَ الداءَ ووصفتَ الدواءَ ولكن أين من يسكب هذا الدواء في كأسٍ شفافةٍ ويمسكها بيدٍ رحيمةٍ ويسقيها هذا المجتمع المريض ليشفيه من هذا المرض ويجمع كلمتهُ ويوحد صفه لينتظم في سلكٍ واحدٍ وفي خندقٍ واحدٍ ليقابل عدوه الصهيونية وأعداء الإسلام الذين يكيدون له ويتمنون له الغوائل أسأل الله أن يجمع هذه الصفوف على كلمة التوحيد وتوحيد الكلمة والنصر المؤزر والفتح المبين.

٢/٦/١٤٢٤هـ

١٣/٧/٢٠٠٣

الشبح التاسع

كان في سالف الزمان سلطانٌ جائرٌ متعسفٌ وكان يحكم مدينةً تقعُ على ضفاف شاطئٍ من شواطئ الدنيا وكلما سمع عن بنتٍ ذات جمالٍ وبهاءٍ وسحرٍ وفتنةٍ أو كالوردةِ المتفتحة لأضواء الفجر ونسمات الصباحِ يختطفها من أهلها بقوتهِ وجبروتهِ عن طريق جنودهِ وأعوانهِ ولم يقتصر هذا السلطان على اختطاف الفتيات الجميلات وكان يتمتع بإحداهنَّ أياماً قلائل ثم يركلها أو يدبر لها غيلةً ويغتالها وتصبح جثةً هامدةً ولم تختصر ظلامتهُ على هذا العمل الشنيع الذي لا تزنه موازيين ولا ترضاهُ حتى الوحوش وكيف للإنسان وهو إنسانٌ فهو يسخِّرُ سكان مملكته لشهواتهِ الجسديةِ ويثقلهم بدفع الضرائب الضخمة والأتاوات حتى أغرق الشعب في حياةٍ بائسةٍ لا تطاق واستمر على هذه الوتيرة ردحاً من الزمنِ طويلاً يسير بهذه السيرةِ المظلمة التي لا ضوء فيها ولا عدل وجاءت الصدف الغريبةُ العجيبة أن تصِفَ له بطانتهُ فتاةً من أجمل وأحسن فتيات المدينة التي يندُر أن يُرى مثلها فهي كالوردةُ المتفتحة كضوء الشمس وفي قوامها المستقيم كعامود النور وصدرها الممتلئ بالكنوز فهي زهرةٌ ندیانةٌ وبسمةٌ حاليةٌ تخطف العيون وتخلب القلوب وكانت البطانةُ تبحث عن والد هذه الفتاة فظفروا بالخبر الواقع أن والد هذه الفتاة هو وزير السلطان فرفعوا له تقريراً كخارطةٍ توضح أوصاف هذه الفتاة ووالدها ففرح السلطان بهذا الظفر وهذا الاقتناص وهو كباحث عن لؤلؤةٍ ظفرت يداه بها ومن السهل عليه اقتناصها ما دامت هذه اللؤلؤة بنت الوزير.

فجاء الوزير في زيارته الروتينية الرسمية حتى أخذ مقعده وأستقر فإذا بالسلطان يهمس في أُذنيهِ إنني أطلب يد ابنتك ليكون لك الشرف ويضاف لك مجدٌ لمجدك ونمنحك الرتب فضاقت على الوزير الدنيا الرحبة وصمتَ صمتاً عميقاً ولم يستطع أن ينبس بكلمةٍ لا بل أجاب بالإيجاب وعندما أنفضت الجلسة الرسمية ذهب إلى بيتهِ والهم يضببُ عينيه ويبطن قلبه ويستولي على إحساسهِ وهو يسير في طريقهِ لا يكادُ يبصرُ ما تحت قدميه حتى دخل إلى بيته وأخذ مقعده وأستدعى زوجه وبعض أبنائه ليطلعهم على هذا الخبر الفظيع فما أكمل حديثه حتى انفجر كالقنبلة أو كالصاعقة فتحول بيته إلى وهج من الحزن وكادت زوجه أن تغيب عن هذه الحياة وعندما رجع لها إحساسها ووعيها سكبت دموعها لتخفف من ويلاتها ثم قالت لزوجها بصفتك وزيراً لهذا الملك أليس عندك مخرجٌ لتنقذ هذه الفتاة التي هي في ميعةِ شبابها وندفنها غداً ولن تتمتع هذه الوردةُ بهذا الربيع المخضوضر ولم تذع ما فيها من عطرٍ فسمعت البنتُ ميٌّ بما يدور بين والديها من حديثٍ يفيضُ بالأسى والشجون وكانت مؤدبةً وتتمتع بعقلٍ واتزان وتقدمت لوالديها بأدبٍ وخضوعٍ قائلةٍ اسمحا لي لأُشارككما في حديثكما بخيرٍ أو بشرٍ فصمت والدها وغصّا بالكلمات وكانت الدموع هي التي تعبر عما في قلبيهما وبعد إلحاحٍ من ميّ على والديها أخذَ والدها ينبئها وكلماتهُ تتقطع حروفها ولا يكادُ يفصحُ بها ولكنَّ الفتاة ميّ قالت لأبيها لا تجزع وسأكون شهر زاد ويكون شهريار فأُنقذ بلادي وفتياتها من هذا الكابوس ومن هذا النير المطوق لإعناق فتيات هذه المدينة سأكون فجر سعادةٍ لهم أو ضحيةً فيخلُصنَ من هذا الاستعباد الذي طال ليله ولم أر في الأفق فجراً يلوحُ ليبدد هذا الظلام ولكن بمشيئة الله سيلدُ الفجر من أُفقي وتشرقُ الشمس من سمائي فذهب والدها الوزير إلى السلطان لينقل له الموافقة على القران وترحيبها بهذا الزواج فاستغرب السلطان من وزيره ما حكاه عن أبنته ميّ لما خبرته من حياةِ هذا السلطان الجائر ولكنَّ الفتاةُ اشترطت شرطاً على السلطان بأن تكون أختها الصغرى معها في ليلةِ القران

ترافقها حتى الفجر وتشترك معهما في الحديث فقبل السلطان ذلك الشرط فتم القران وفي أول ليلةٍ تُزفُ فيها ميٌّ للسلطان عندما تفرق المحتفلون بالقران قالت له: أيها السلطان العزيز أحب أن أُحدثك وأقص عليك قصصاً من أخبار القرون الماضية ففي التاريخ عبرٌ وألوان من التجارب تكونُ لك زادً في هذه الحياة تزودك وتعينك على تصريف أمور مملكتك وتصلك إلى مرفأ السلامة فبدأت حديثها في إسلوبٍ قصصيٍ شيق حتى أدركها الصباح فسكتت عن الكلام المباح وقالت في ليلةِ غدٍ تكمل هذه القصة واشتغل الملك بزوجهِ وهكذا دواليك في كل ليلةٍ تقف ميٌّ على هامشٍ من قصتها يحتاج إلى صلةٍ في الليلةِ الأخرى كما فعلت شهرزاد مع شهريار واستمرت بها هذه الحياة فأشغلته عن التفكير في فتاةٍ أخرى وصانت فتيات بلادها من الموت ومر عامٌ يتلوه عامٌ أخر حتى أنجبت له ولدٌ فشغف به واستطاعت هذه الفتاة بعد أن حلت في عرش قلبه وسيطرت على لبه وتدخلت في بعض شؤون الحكم وسيطرة على الوزراء وكانت تدير المملكة من وراء حجابٍ فخففت من ويلات الظلم والعسف فاحتلت مكانةً مرموقةً وعاشت في قلوب مواطنيها يتطلعون إليها كما يتطلع الحقل للربيع فازدهرت المملكة وانتشت في ظل تدبير هذه المرأة وإرشاداتها إلا أن القضاء لم يكمل سعادة هذا الوطن وسعادة هذا الملك فألم بميّ مرضٌ عضالٌ أقعدها وبالتالي أفقدها وعيها فلم يكن الطب حينذاك متطوراً كما هو في القرن العشرين وفي فجر الحادي والعشرين حتى قضت نحبها ولم يكد يذاع خبر موتها حتى هبَّ الشعب في بحرٍ من الحزن كأنه زورقٌ يعوم في دماء خضم تعسف به الأمواج وقد مزقت الرياح الهوج قلاعهُ فأوشك على الغرق وودع أحلامهُ الوردية مع ميّ ليدفنها معها في لحدٍ واحد ويعود بالحسرات التي لا تجدي ولا تخفف من آلامهم ولا ترجع الميت الدفين.

١٢/٦/١٤٢٤ هـ

١٠/٨/٢٠٠٣ م

الشبح العاشر

وإذا التقى النظرانِ تلمعُ أسطرٌ　　　يعيا بحلِّ رموزها الولدان

إن هذا البيت يرمز ويشير إلى قصة حبٍّ وهوًى عذري تحدث عنها التاريخ في الماضي البعيد السحيق وروى فصولها في ألوانِ حروفٍ صُبِغتْ بخيالاتٍ زوقتها ريشةُ الفن وصبغتها يدُّ الزمنِ فكانت تشبه الأساطير، وإن كانت هذه القصة صحيحةً في ظلالها الواقعية أو أضيف عليها تهاويلُ لتكبير ملامح الصورة أو كانت مجرد خيالٍ لا تمتُ للواقع بشيء فهي إن دلت على شيءٍ إنما تدل على أدبٍ رفيعٍ وأخلاقٍ كريمةٍ وعفةٍ تتسامى على الشهوة الجنسية التي هي مسارُ كل بليّةٍ في تاريخ البشرية، ولم أرد من هذه الأحرف التي استفتحتُ بها حديثي إلا أن أُصور قصةً تماثل هذه القصة وتتكرر صورها في الخيال إن كانت خيالية وفي الواقع إن كانت واقعية فقد روى القاصون أو القاصات في ليلةٍ من الليالي في سالف الزمانِ عندما تتحلّق العائلات حول الموقد حلقاتٍ تدور كالسوارِ في معصم فتاةٍ والموقد يتوقد بما فيه من جمراتٍ لإنه فاكهة الشتاء وفيه إبريق الشاي والقهوة العربية فتحلو هنا السهرة ويلذُّ الحديث وعلى زمجرةِ الريح ودوي الرعد وأصوات الأمطار وهذه السمفونية من فنٍ لا يماثلها فنٌ وقد تخيف بعضنا فننكمش كما ينكمش الظل في الضوء وتعذُب السهرة وتبدأ القاصةُ في أقاصيصها الخيالية التي هي تشبه الخرافة ومن روايات حكاياتها حكايةُ حبٍّ كان رجلٌ في سالف الزمان يعيش عيشة الفقراء ولكنه يحمل وعياً، ورزق أبناءً ومن

ضمنهم أبنُ له أسمه فتحي فنشأ بعناية والده أدخله الكتاتيب الشعبية، ويتابع أبناءه في التربية والاستقامة وكان إلى جنبه بيتُ جارٍ فيه بنتٌ تدعى لبنى هي من أتراب فتحي وشاءت الصدفةُ أن تزور لبنى بيت فتحي وتلتقي به وهما طفلانِ صغيرانِ فامتزجا وأخذا يلعبانِ لِعباً شعبيّة تعرف بين الفتيان والفتيات كمثل إحدى اللعبات تسمى (إلخششوَّه) ومعناها أن الشخص الواحد يختفي ويظل الباقون يبحثون عنه حتى يلتقوا به وكلُ فردٍ من طاقم اللعبة له دورٌ يأتي في فصول هذه اللعبة في الاختفاء والبحث عن الآخرين ويكون التصفيق والضحك عندما يحصلون عليه وإلى ما يماثل هذه اللعب لأنهم أطفالٌ لا يشعرون بمسؤوليةٍ ونما فتحي ونمت لبنى وهما يعيشانِ في أفقٍ بريءٍ ولا يعرفان أسرار ما يلمع في نظريهما وماذا يخبئ لهما الزمن، واكتملت فتوة فتحي وتفتحت لبنى إلى ضوء الشمس كما تتفتح الوردة لإضواء الفجر وهنا تعارفت الروحان والتقتا على سماءٍ واحدةٍ وفي كأسٍ شفافةٍ كما يلتقي الضوء بالضوء وكلما مرَّ يومٌ من الزمن نما وكبر هذا الحبُّ في نفسيهما ولا أقول جسديهما لأن حبهما كان حباً ملائكياً ولا يمتُ إلى الرغبة الجنسية إنما هو حبٌّ عذري كما يقولون فهما متصلانِ، منفصلانِ واستمرت هذه الحياة الروحية مدةً وهي تنمو في شبابها كشبابهما في رسالةِ حبٍّ تختصرها العيون في نظراتٍ وتبديها القلوب في خفقاتٍ فهي تختصر في رسائل تعيا عن فك حروفها الأفكار ولا يحل رموزها إلا العاشقان اللذانِ عاشا كالشموع ليحترقا في محراب الغرام ويذوبان كما تذوب الشموع في مدلهم الحياة تنير الطريق للسائرين في درب العاشقين ولكن الزمن القاسي لم يترك لهما هذا الجو ليعيشا على رفرفه ويهنئا بما فيه من صفاءٍ وودٍ وكان ذات مساءٍ على ضفةِ الشاطئ وفتحي يشرح ما به من لوعةٍ في نجوى تفيضُ شوقاً ولهفة ولبنى تصغي لتلك النجوى بقلبٍ واعٍ ثم تتحدث لبنى بكلماتِ حبٍ تختصر المسافات وهي تشير إلى تبادلٍ مشتركٍ يجمعهما قلبان فيترنح فتحي تحت ظل هذه الكلمات ويزداد غراماً وهياماً في حب لبنى واستمرا على هذه اللقاءات على ضفةِ شاطئ البحيرة وفي

مساءٍ جاءته لبنى تكاد أن تبتلعها الأرض أو أن تجن فارتاع فتحي لهذه الصورة المفزعة. لم تتمالك لبنى حتى ألقت بنفسها على فتحي وهي تقص عليه الخبر المفزع في دموعٍ تبطنها أنَّاتُ قلبٍ جريحٍ أيها الحبيب لقد تقدم مساء اليوم احد الأشخاص لطلب يدي من أبي ومن المحتمل أن يحظى بقبولٍ لأن هذا المتقدم غنيٌ يملكُ قصوراً وحقولاً وهو يكبرني في السن كثيراً لعلي أكون في سن إحدى بناتهِ، أو أصغر منهنَّ ولو تقدمتَ لأبي لننظر ماذا يكتب الله لنا لعل من الخير أن نظفر بهذه السعادة فنعيش في هذه الدنيا سعيدين في عشٍ واحدٍ هنيئٍ يعمر بنور الحب والوئام ومن توه ذهب فتحي إلى والد لبنى طالباً منه يد أبنته غير أن والد لبنى سأل فتحي ماذا تملك في هذه الدنيا فأجاب باختصار إنني أملك قلب لبنى كما تملك قلبي وهذه السعادة هي السعادة لا المال فالمال بلا محبةٍ لا يسعد، والمال يفنى والسعادةُ تبقى. أطرق والد لبنى هنيهةً ورفع رأسه للشاب يخاطبه إن الحياة لا تبتنى إلا على المال أما سمعت قول الشاعر :

تبين لي إن العلوم بأسرها فروعٌ وإنَّ المال فيها هو الأصلُ

لم يكن فتحي الشاب الذي لا يميزُ مفارقات الحياة وما تنطوي عليه من خيرٍ وشرٍ وسعادةٍ وشقاء فأجاب والد لبنى قائلاً له إن هذه النظرة الخالصة لحب المال غير صحيحة فالعلم هو الذي يوجد المال أنا لا أنكر أن للمال دوراً في الحياة ولكنه ليس كل شيءٍ فكم من أُمةٍ جاهلةٍ لا تستطيع أن تسيِّر أُمور حياتها ولا تعرف من أين تلِجُ أو تخرج بل انقرضت وغطى عليها جدار التاريخ وضاعت في تلافيف الزمن وكم من أُمةٍ عالمةٍ عاشت تضاهي النجوم وتحيل ظلام الحياة إلى مصابيح تنير السبل. فضاق والد لبنى بمنطق فتحي ذرعاً قائلاً له أنا لن أدخل معك في جدالٍ فلسفيٍ لا يؤدي خيالهُ إلى واقعٍ ملموس فقد اختصرتُ لك رأيٍّ في الحياة فإني أُحبُّ المال وأقدسه فإذا كنت من ذوي الإثراء كانت لبنى زوجةً لك ولا أعبأ لما تزوقه من أساطير للحبِّ والانسجام وما تقرأه روحك من أسرارِ روح لبنى إن هذه

الفلسفة لا ترجع على لبنى بسعادةٍ في الحياة ولكنني سأزوجها ربَّ النخيل وربَّ القصور التي قصوره تزاحم النجم ونخيله تملأُ الفضاء ستزف غداً لهذا البعل فتعيش في سعادةٍ وطمأنينةٍ وهناءةٍ. خرج فتحي وهو يجرر أذيال الخيبة ويلعقُ مرارةَ الحرمان ليبلغ لبنى ما دار بينه وبين أبيها من حديث فصولٍ مؤلمةٍ ستعقبها الويلات وتجر على حياتهما ليلاً من حزنٍ عميق قد يودي بحياتهما إلى الموت لأن هذه الساعات سيعقبها الانفصال والحرمان.
لم تتمالك لبنى هذه الموسيقى الحزينة حتى تهاوت وسقطت إلى الأرض وغابت لحظاتٍ عن هذا الوجود وبعد هنيهةٍ تمتمت بكلماتٍ لفتحي وداعاً ستغربُ شمسي وينطوي فجر حياتي ولا أظنها إلا أياماً وسأزفُ في غدٍ إلى قبرٍ أخرتُ قراننا اليه فلم تبق سوى أيامٍ فإذا صدى الناعي يرنُّ بأُذن فتحي لينقل له انطواء فصلٍ من فصولِ قصتِهِ التي هي كالأمل المخضوضر، وذهب فتحي ليقف على قبر حبيبته غير أنه لم يطل به الوقف على هذا القبر فأنشد متمثلاً :

هنا ثغرُ ليلى الذكي الضحوك يكاد وراء البلى يلمعُ

ثم هوى على القبر يعانقه فانطوت حياتهُ، وانتهت قصةُ حبٍّ، وأرخي الستار على تلك الفصول وغابت في تلافيف السنين.

١٦/٦/١٤٢٤ هـ
١٤/٨/٢٠٠٣ م

الشبح
الحادي العاشر

لقد شاءت الصدف أن تجمع بدون قصدٍ ثلاثةَ أشخاصٍ: شاعراً، وكاتباً، وصحفياً لم يمهد لهذا الاجتماع ولم يبرمج له إنما هو لقاءٌ سار كما يلتقي شخصٌ مع شخصٍ بدون تحديد وقتٍ أو ميعاد، وهذه الجلسة تحولت إلى ندوةٍ أدبيةٍ فيها نقدٌ، وتوجيه. النقدُ البنَّاء إذا حملت إزميله كفٌ أمينةٌ لا تميل مع الهواء كما تميل الريح سعف النخل وأن تكون هذه الكف كف صناعٍ له من الفنِّ باعٌ وذوقٌ سليم فيكون إزميلها يجسد الصورة ويبرز الملامح على حقيقتها بدون رتوشٍ تضفى على الصورة أو نقصٍ يمحى من تلك الملامح والظلال إذا مال الناقد حسب هواه وباع عاطفته، فيصبح إزميله لا يبرز الصورة في مظهرها الواقعي بل ينقص من تلك الملامح والظلال ويحاول طمس الصورة، وبعد هذه التوطئة نفتح باب هذه الجلسة لنسمع التحاور الذي دار بين هؤلاء الثلاثة:

بدأ الشاعر يشيدُ بآثار وطنهِ ومفكريه وماله من دورٍ لعبه في التاريخ القديم والجديد، وصار يستشهدُ بآثار مواطنيهِ، وما لهم من دورٍ في الحياةِ الفكرية التصاعدية التألقيه في الحياة العلمية، والأدبية ثم صمت هنيهةً، وبدأ الكاتب يؤيد الشاعر ويشيدُ بهذه الآثار الفكريةِ والإصدارات التي أصدرها هؤلاء المفكرون غير أن الصحفي تورَّم قلبه وعبس وجهه وامتقع لونه ثم اندفع والحسد يأكل قلبه يفندُ ويجادل أن ليس في وطنكم من يستحقُ الذكر أنتما لا تميزان الأفكار، ولا تقيمانها لم أر أثراً عندكم

يستحق الدراسة أو البحث عنه، وأسترسل في هجومهِ العنيف على وطنه وأبناء جلدته كأنَّ له وتراً وأخذ يشيدُ بمفكري غير وطنه وبعد أن أفرغ ما في جعبتهِ من حسدٍ أجابهُ الشاعر هل أنت بصفتك صحفيٌّ مُجِدٌّ في مقالاتك ورأيك أم هذه صناعةٌ تتزلف بها وتتقرب بها فالصحفيُّ لا يقول ما يعتقده ولا يعتقد ما يقوله إنما هو تاجرٌ يبيع البضاعة التي تُروج في ذلك الموسم، أو تلك الأسواق وإن صدقت هذه المقولة ليست كليةً بل هي جزئية تنطبق على نفسها وتكلم الكاتب قائلاً إن رأيي هو مطابقٌ لرأي الشاعر لأنني تأملتُ ما قاله من رأيٍ واقعيٍ فوجدته حقاً سافراً كالصباحِ لذي عينين فأنا أؤيده في رأيه وأشيد به، وتمثل بقول الجواهري :

وصحافةٌ صُفرُ الضمير كأنها　　　سلعٌ تباعُ وتشترى وتعارُ

وهنا غضب الصحفي من هذه الصراحة المكشوفة وحرق أوراقه واشتعل حزناً وضاق ذرعاً وقال في لهجةٍ مرَّةٍ ما أنتما والفكر ما أنتما إلا جاهلان لا تزِنانِ الفكر وليس عندكما المقاييس الفنية ثم صمت فقال له الشاعر لقد تحدثت لك في هذا الحوار الهادئ المطمئن بحديثٍ يوضح الحقيقةِ ويزنُ الأفكار بمقاييس دقيقةٍ تميز الجوهر من الفحم وتضع الأشياء في درجاتها على ذوقٍ سليم، ومقاييس فنية لا تشوبها العاطفة أو الأهواء، ولا تميز هذه الموازين النقدية في مقاييسها الفنية بين قريبٍ أو بعيدٍ أو مواطنٍ فالفِكر لا يملكه فردٌ فسيبق الفكر من حيث إنه فكر لا يرتبط بمقاييسٍ زمنيةٍ أو حدود جغرافيةٍ تقوقعه في قمقمٍ أو سجنٍ من السجون المكانية إنما هو نبعٌ يتدفق سلسالاً لجميع المفكرين فمن فتح الله بصيرته نظر للفكر من حيث إنه فكر بدون النظر لمن قال وإنما ينظر إلى ما قيل ومن عميت بصيرته كمثلك أيها الصحفي فلا تنظر إلّا لمن قال، وما رأيتك يوماً نظرت لما قيل فأنت دائماً تعيش في أفق من قال بدون معرفةٍ أو بصيرةٍ، ولم أرك يوماً عندما تتحدث لا أقول عندما تكتب عن مفكر من أبناء جلدتك وإذا تحدثت فإنما حديثك عنه كحديث من تاه في صحراء

لأنك لم تفتح ذلك الإصدار وتقراه كما تقرأ لغير أبناء وطنك فالصنمية الأدبية هي معلقةٌ ومرتسمةٌ في ناظريك وفي قلبك المتنكر لوطنه، وهذه الظاهرة طالما وقعت في شبكةٍ تلتف على عنقك وقد صدقت عليك مقالتك التي رمتنا بالجهل فما أقربها من ذاتك، وهنا صمت ليتحدث الكاتب فقال الكاتب أنا أضيف هنا جملةً لنختم بها حوارنا ولعلها تُبصِّر أخانا هذا الصحفي البعيد كل البعد عن وطنه الذي يعيش على مآدب غير وطنه، ويحتقر أبناء وطنه ولا ينظر إلا لغيرهم، وإن هذا الصحفي يرى القذة في عيني أبناء وطنه، ويعمى أن يرى الجذع في عين غيرهم هكذا أفتتن بحب الأجانب وبغض أبناء جلدته وأحسن مقولة أن أختم حوارنا ببيت الشاعر/ حافظ إبراهيم :

أُمةٌ قد فتَّ في أعضاضها　　　بغضها الآل وحب الغرباء

٢٥/٦/١٤٢٤ هـ

٢٣/٠٨/٢٠٠٣ م

الشبح
الثاني عشر

قال أحد المفكرين إن هناك أسلحةً فتاكةً أقوى من المدافع والرصاص، وأفتكُ من القنابل الذرية التي تقذفها الطائرات الحربية، كان هذا المفكر يخطب في مجتمعٍ فدهش ذلك المجتمع بهذا القول، واستغرب كل الاستغراب وتطاولت الأعناق لذلك المفكر غير أن شخصاً كان جريئاً فهتف بذلك المفكر طالباً منه التفسير والتوضيح هتف بذلك المفكر يا أستاذ ماذا تقصد بهذا السلاح الذي يفتك بالمجتمع فسِّره لنا ووضِّحه أجاب المفكر ذلك السائل إن السلاح الفتاك الذي يفتك بالمجتمع ويمزقهُ أشلاءً أشلاء، وهو أشد من الرصاصات، والقنابل في فتكهِ وتحويل المجتمع إلى قطع من اللهيب تأكل بعضها بعضاً وهو كوليرا المجتمع وسرطانهُ هو الحسد والأنانيةُ والأثرة هذه الأسلحةُ أشد على المجتمع من وقع الأسلحة الفتاكة فبينما هذا المفكر يشرح أو يتكلم حول هذا الداء وما فيه من أخطار انبرى شخصٌ كان مفكراً وعالماً إلا أن البؤس غطى على علمهِ وأزراهُ حيث كان يرتدي هنداماً ممزقاً وعلى جبينه خطوط الأيام وألم البؤس التي شقت جبهته درباً فدربا ولكنَّ نفسه الطموحة وأمله الوثاب لازال يتوهج في ريعان الحياة انبرى يخاطب المفكر إن هذا المجتمع الغوغائي لا يفهم لغة المفكرين إذا رمتَ النجاح في هذه الدروس والمحاضرات وحتى يكون لها أثر في هذه الدهماءِ التي لا تفرق بين الفحم والجوهر، ولا تميز بين الغث والسمين إذا كنت تريد أن تصلح جانباً من جوانب ذلك المجتمع وتبصِّرهُ فعليك أن تدخل إلى قلب المجتمع عن طريق القصص أو التمثيل لتوصلهُ

إلى رؤيتك الإصلاحية أو التهذيبية إنما هو عن طريق التمثيل الذي هو يلامس كبد الواقع، ودعوة لكل حكيمٍ أو خطيبٍ أو داعيةٍ . أيها الأستاذ الكريم إنني استميحُ منك العذر حيثُ إني قاطعتك في خطابك وأبديتُ وجهة نظري حول ما ينفع المجتمع وينجحهُ وإن سمحت وتفضلت عليَّ بفترةٍ زمنيةٍ أشرح فيها، وأوضح ما أشرت له من فكرةٍ تقترب لأذهان المجتمع وتهضمها فاعتبر هذه كمداخلة نزلت على حديثك كما ينزل الطل على ثغور الزهور فخذ مثلاً، فقد جمعت الصدف يوماً ما زعيماً متغطرساً، وتاجراً بطراناً،وفقيراً مسكيناً قد قست عليه الحياةُ وأماتت نفسه وأذلَّته فهو يرى نفسه ترابيةً يعيش في ليلٍ دامسٍ ودربٍ متعرجٍ كتائهٍ في صحراء لا يعرف أين الطريق ولكن الصدف ألا لعنةُ الله على الصدف قد جمعتهُ مع هذين الشخصين فبدأ الزعيم المتغطرس يتحرش بذلك الفقير ويصدر أوامره بسخريةٍ وازدراءٍ ويتقبلها ذلك المسكين لأنه يخشى من بطش ذلك الزعيم، ووجد التاجر البطران فرصةً ليلهو ويتسلى بذلك الفقير وليس لديهما من تسليةٍ في ذلك الوقت إلا السخرية بالفقراء كمثلِ هذا الفقير حيث لا يملكون أجهزةً متطورةً مثل التي نشاهدها اليوم من الفضائيات فلا يوجد في ذلك العصر مذياعٌ، ولا جهاز تلفزة ولا جهاز حاسوب تملأ ذلك الفراغ ولم يكونوا من المثقفين الذين يتوقون لإغراق وقتهم بالكتب ؛ ويعشقون الحرف فيقضون أوقاتهم في مسامرة الكتاب ((وخير جليسٍ في الزمان كتابُ)) كل ذلك لم يكونوا أهلاً له، فيتلهونَ بهذه السخرية وهي السخرية بالفقراء والمساكين وهذه إنحطاطةٌ خُلقية تنحدر بأصحابها إلى هوة المستنقعات العفنة، ولا تتوقف هذه السخريةُ على الكلمات النابية والبذيئة التي تتبعها قهقهاتٌ يكون لها صدًى يملأُ سماءَ المكان بل تتعداها إلى الضرب وربط الأرجل وحتى تبلغ السخريةُ من بعض الزعماء فيربط الشخص بحبلٍ ويضعه خارج الشباك من وراء الجدار، ولو انقطع به الحبل لهوى من قمةٍ عاليةٍ لعلها أن تكون في الدور الثالث أو الرابع إلى الأرضِ متقطعةً أوصالهُ ومتناثرةً أشلاؤه أهكذا الغني وهكذا الزعامةُ؟ فإذا كانت

الزعامةُ هي السخريةُ بشريحة من المجتمع التي تمثله أكثرية المجتمع فبئس الزعامةُ فهو يصورُ واقعاً مريراً عاشهُ، ومرَّ بأجوائهِ فهذا لونٌ من ألوان الزعامةُ التي لا تصلح المجتمع إنما تفسده وتعيش تمتص من دمائه كما يمتص البعوض من دَمِّ الإنسان فقد تجرع من كؤوسها المريرة المحرومون. أهكذا الزعامةُ؟! ثم صمت هذا البائس الفقير بعد أن هز المجتمع بتمثيلهِ الرائع الذي قرأه المجتمع حروفاً واضحةً يشاهدونها مشهداً مظلماً وصورةً مرعبةً في كل مساءٍ وصباحٍ في سيرةِ هؤلاء الذين يدعون بالزعماء الذين لا تمر يدهم يوماً ما على إصلاحٍ أو ترميمٍ لمجتمعٍ يكادُ ينهارُ، وكل ما يطلبونهُ من أولئك الشريحة أنْ يجلونهمْ ويرفعونهم فوق أقدارهم، وإلا تعرضوا للسخط فما وراء السخط، ولهذه الظاهرة، والأسلحة الفتاكة التي أشرتُ لها تأخر المجتمع العربي ككل وهي العقبةُ الكؤود لتأخير هذا المجتمع عن المجتمعات الحضارية برغم ما لدى المسلمين من حضارة كنز ثمينٍ لا يوجد مثله كنز ولو طبقنا منهُ مثالاً واحداً وهو التراحم والتوادد لأصبحنا سادة العالم، وخضع لنا هذا الكون بما فيه من بشرٍ واستفدنا مما سخره لنا العزيز الحكيم من كائناتٍ تتمثل طبيعتها في البحر والأرض والفضاء وضوء الشمس والقمر وأمثال هذه المخلوقات التي خلقها الله سبحانه وتعالى وجلّت قدرتهِ سخرها لهذا الإنسان تفضلاً منه ومنَّةً على عبيده ولكنَّ الإنسان لا يقدر هذه النعم فهو جهولٌ جحودٌ.

وفي خاتمةِ هذا الحرف كل ما نأمله من قلوبٍ صادقةٍ مخلصةٍ أن يعود المسلمون إلى دينهم وتعاليم نبيهم ويتمسكون بها وبالقرآن العظيم وذلك الفوز بالدنيا والآخرة.

٧/٧/١٤٢٤ هـ

٤/٩/٢٠٠٣ م

الشبح
الثالث عشر

كان في سالف الزمان وعلى هامش الحياة كوخٌ يتكون من سعف النخل تسكنه أسرةٌ تتألف من زوج وزوجه وثلاث بنات وولدين، وربُّ هذه العائلة يمتهن صنعة البناء على منهاجية المعمار القديم كتشييد البيوت من الجص والآجر والطوب فيكدح طيلة يومه فإذا ما ظفر بقرشٍ إبتاع به لهذه العائلة أكلاً ووقوداً ليضيء لهم في الليل ذلك السراج المعتم الذي يتلجلج ويكاد أن يختنق فيموت وسراج الفقراء ليس مصباحاً يخطف الأبصار أو فانوساً يلقي بضوئهِ ظلالاً فينير ذلك المحل أو لالةً فتعطي أضواءً أضوء من ذلك الفانوس إنما هذا السراج الذي يستعمله الفقراء البائسون هو قارورةٌ فارغة عبَّ ما فيها الأغنياء وألقاها صاحبها في سلة القمامة فيأتي ذلك البائس لها فيأخذها من تلك المهملات فيملأها كيروسين (الجاز) أما ذبالتها فيبحث عن خرقٍ بالية فيقطع منها ما يصلح على هيئة الذبالة وهي في اللغة العامية القطيفية تعرف بالفتيلة فيضعها في تلك القارورة ثم يعمل لها من التمر بعد إزالة النوى منها فيضع ذلك التمر على فم القارورة كغطاءٍ لها لتمسك الذبالة وليس لها مفتاحٌ ليرفع الضوء أو يخفضه بل هي ضياءٌ باهتٌ لا تكاد أن تبصر فيه جوانب ذلك الكوخ الحقير الصغير الذي لا تزيد رقعته على مترين أو ثلاثة وبرغم هذه الحياة الممضة كانت تلك العائلة وما يماثلها من هذه الشرائح البائسة راضيةً صابرةً مطمئنةً تعيشُ عندما يتحصل ربهُّا على ما يحفظ رمقها وتقنع بالقليل ولا تصل إلى الشبع وعندما

تتحصل على تلك البلغة الضئيلة تنام هادئةً مطمئنةً تداعبها الأحلام وتغمرها السعادة وبرغم الكوارث التي تتعرض لها والأحداث التي تمر بها أو تمر هي بها تعيش في دنيا بعيدة عن الحسد وما يجرُّ من ويلات الحسد وللمصادفات والمفارقات في هذه الحياة كان هناك قصرٌ يجثم على فم هذا الكوخ لتاجرٍ من كبار التجار لا يهدأ ولا ينعم له بالٌ فهو شقيٌ مكدودٌ متعبٌ ليله ونهاره لم يذق لذة الحياة وكان له زوجٌ تتبرم من هذه الحياة حيث لم تنعم بالحياة الزوجية وكأنها تعيش في أتونٍ وتمر بسعيرٍ في ذلك القصر الشامخ المحاط بالعبيد والإماء فكانت تشرف من فتحات ذلك القصر المطلي بالرخام والفسيفساء على كوخ ذلك الفقير البائس المحطَّم الذي هو وأسرته لم يبصروا ألوان تلك الحياة التي تنعم فيها تلك الزوجة، ولكن تلك الزوجة حسدت ذلك الفقير وزوجه على ما يتمتعان به من معانٍ زوجيةٍ وهدوء قلبٍ يأتي ذلك الفقير البائس إذا ظفرت يداه ببعض القروش حاملاً لعائلته الأرز وبعض السميكات والوقود لذلك السراج، الذي أعطينا عنه لمحةً عن طبيعته وشكله وهذا السراج عندما تأخذ العائلة مضاجعها تخمده ولو لم تخمده لسبَّبَ لهم حريقاً لأن ذلك الكوخ يتكون من سعف النخل وليس على السراج سورٌ، أو حمايةٌ تقيه، أو تقي الخطر المنبعث منه، ولطالما بعض أرباب الأكواخ نسوا إخماد هذا السراج فلا يصبح الصباح إلا وقد أتت النار على الكوخ وحولت ساكنيه إلى أشلاءٍ متفحمة، وكان أهل الأكواخ على يقظةٍ وحذر من ذلك الخطر الذي يهددهم ألا يقع في صدفة النسيان فيصبحون ضحية لذلك السراج، فكانت زوج التاجر تتقصى من شرفة قصرها تلك الحياة البائسة عندما يأتي ربُّ العائلة وكيف تستقبله زوجه وأبناؤه الخمسة وكيف يداعبهم ثم يجلسون ليأكلوا ما ظفرت به يدا والدهم، وما طهته أُمهم ؛ ثم يتسللون بعد سهرةٍ عائليةٍ بسيطة غير معقدة إلى مضاجعهم ويستسلمون إلى الكرى بعد أن يخمد سراجهم

المتلجلج الباهت الظل فيغطون في نومهم العميق وفي ظلامٍ دامس لا يعبأون بما في الحياة من صورٍ مؤنسة أو صور محزنة لأنهم يمثلون الصور الحزينة أو قل هم تلك الصور التي تسير على هذا الكوكب ؛ حتى يداعب أصابع الفجر الأفق ويشرق الضوء وتزقزق الطيور فيستيقظون على دفقات النور وترنيمة العصافير فتستيقظ هذه الأسرة على تلك المناظر وليس لديها إفطار من ألوان الطعام التي تقدم في وجبة الصبح على مائدة إفطار الأغنياء إنما تكتفي بكسيرات خبزٍ إن بقيت من وجبة العشاء وألا فجرعة من الماء وحمدت الله ومضى ربُّها في طريق الكدح والعمل فظلت زوج ذلك التاجر تراقب تلك الحياة وكيف ينعم هذا البائس بزوجه وأطفاله فتمنت في نفسها لو كانت هي زوج ذلك البائس لكان أفضل لها من هذه الحياة الناعمة لأنها تعيش عيشة الجسد المادي ولم تتذوق معنى الحياة الزوجية التي تنعم زوج هذا البائس في كل مساءٍ قد تمر الأشهر وهي لا تشعر بلقاء زوجها وهو لا يشعر بها لأنه يقضي وقته ساهراً على دفاتره وسجلات تجارته إلى الصباح، وطالما نام على تلك السجلات متهالكاً على تجارته اللاهثة فيظل نائماً عليها حتى الصباح فينهض وأصابع النوم لا تزال تمر بمقلتيه لا يكاد أن يفتح عينيه ولم يجلس مع زوجه ليتناول وجبة الإفطار ويتحدث معها حديث الروح للروح أو حديث القلب إلى القلب ويبادلها حباً بحب وفي ذات مساءٍ ضاقت بهذه الزوج الحياة وعندما أخذ زوجها يرتدي ملابسه كما هي خطته ومنهجيته في سير هذه الحياة ؛جاءت له فصافحته بأدبٍ ورقةٍ ولطف قائلة عندي معك حديث وآمل منك أن تهب لي من وقتك ثواني إن لم تسمح بالدقائق وكان الجواب من زوجها اختصري حديثك فلا وقت لدي لتضييعه بسبب المشاغل التي تنَّصبُّ عليَّ بالعلائق التي تتعلق بهذه التجارة اللاهثة حيث إني أرتقب اليوم عدداً من البواخر التي تحمل ألواناً من البضاعة والأطعمة ولا بد في هذه الساعة أن أكون في المكتب لأتلقى هذه

الأنباء وما تدور حولها فما راعه إلا تنهيدةٌ فيها ألمٌ وحسرةٌ ثم قالت باقتضاب ألا تعلم أيها الزوج أن حياة صاحب هذا الكوخ البائس مع زوجه خيرٌ من حياتنا. وكم تمنيت أن أكون زوجةً لهذا البائس وأنعم بالهدوء والحب الذي يتبادلونه في طهرٍ وصفاءٍ، وكان انبعاث الدمع من عينيها في لحنٍ حزينٍ مشج هو بقية الحديث نظر زوجها لساعته وكان عقرب الساعة يسرع ليقطع الوقت، ويؤخر عليه التزاماته فترك زوجه ونزل السلم مسرعاً لمكتبه لأن التجارة اللاهثة قد سدت عليه جميع منافذ الحياة الروحية، فيصبح، ويمسي لا يرى إلا المادة التي هي معشوقه فهو والمادة عاشقٌ ومعشوق، ولكنَّ هذا التاجر المجرب خطط لهذا البائس حياةً ليشغله ويستريح من زوجه فدعاه إلى مكتبه وأعطاه بعضاً من النقود كقرضٍ وقال له أُعزب عن عمل البناء وتاجر بهذا المبلغ الضئيل وعندما تتحصل على فائدةٍ أعِد لي المبلغ الذي أقرضتك أياه فخرج الفقير البائس وفي عينيه بريقٌ لم يشعر به وفي قلبه فرحةٌ لم يذقها منذ جاء لهذه الحياة، ويشعر بجناحين تطيران به إلى كوخه ليسُّر لزوجه هذه المفاجأة التي ما دارت في خاطره ولم يعرف السِّر المغلَّف، واللغم الذي يريد التاجر أن يفجره في حياته الهادئة لتتحول إلى ضجيجٍ، وشقاء إن صح هذا التعبير.

وبدأ الفقير البائس في عمله الجديد يفتح له الأمل مشرقاً كضوء الفجر وتنفحه دنياً من النشاط والشوق إلى حياةٍ ما كان يحلم بها كيف به أن يعيش واقعها ويتنفس في جوها فساعدته ظروفه التجارية حتى أثقلته تلك الأعباء وبدأت تشغله عن الحياة الزوجية وبراعمه التي يداعبها و يشمها ويضمها في كل مساء، وما فيها من دعةٍ وهدوءٍ وغطّى عليه التفكير فهو عندما يأوي إلى كوخه يبدأ في الحسابات التجارية وما ربحه في ذلك اليوم، وما يخطط له في الغد وانتهت حياته إلى حياةٍ صاخبة لم يعد ينعم بسهرةٍ عائلية ولا بتلك المعاني الزوجية ولا البسمات التي تستقبله بها زوجه

عندما يأتي يحمل تلك البلغة التي تأتي لسد رمقهم كل ذلك كان فبان، وفجأةً أستوقف التاجر زوجته ليسألها أين ثرثرتك التي دائما تثرثرين بها عن حياة هذا الفقير البائس وزوجه لم أرَ لك حديثاً ثرثاراً تديرينه على مسمعي لقد تلفحت بالصمت وعشت في عزلةٍ كأنك لم يكن لديك هذه النعمة، وتعيشين في هذا القصر الضخم، وما فيه من رياشٍ، وتحفٍ، وأثار ؛ فكان جواب زوجه لقد بدأ هذا الفقير يدخل إلى حياةٍ لاهثةٍ تشبه حياتك ؛ التي هي حياة أجسادٍ لا أرواح وماذا أصنع بهذه المادة التي حياتها مهزوزة الكيان، وليس في جوها ظلالٌ من المتعةِ الروحية، ومن المعاني الزوجية. إن بسمةً أو كلمةً ناعمة يفوه بها زوجٌ لزوجه خيرٌ من هذه الحياة، وإني زهدت فيها والموت هو خيرٌ لي من هذه الحياة التي لا أتذوق فيها طعماً من معاني الروح واستسلمت للموت فكانت النهاية.

٨/ ١٠/ ١٤٢٤ هـ
٢/ ١٢/ ٢٠٠٣ م

الشبح
الرابع عشر

أنتِ العذابُ لقلبي والنعيمُ لهُ فما أمرَّكِ في قلبي وأحلاكِ

إن الحب سرٌ من الأسرار العميقة الدقيقة الذي يدقُ حلهُ على الإنسان ويعجز الفيلسوف فلسفته والوصول إلى كنهه ولولا الحب لما انتظم الكون وكان آتوناً يتسعر بنيرانه بنو الإنسان فحب الأب لأبنائه سرٌ من الأسرار وصلة حانيةً لتلك الأفراخ لتمر بهذه الدنيا في موكبها الصاخب بكل سلامٍ وأمان ولولا هذا الحب لما حصل ذلك الامتزاج وتلك العاطفة التي لو هبّت الريح على بعض الأبناء لامتنعت عين أبيهم عن الكرى وظلت تداعب عينيه أصابع السهر وتبطن جوه ضبابة من القلق والخوف وحب الأخ إلى أخيه والصديق إلى صديقه قسمٌ من الأسرار التي أفاضها فاطر السماوات والأرض وأنبتها في قلوب البشرية عواطف حانيةً لتتعارف، وتتحاب وتعيش في جوٍ من الصفاء والوئام وقد سجل التاريخ بعض الأخوة الوافية والصداقة حتى ارتفعت هذه الإخوة أو الصداقة إلى درجة التضحية بالنفيس والنفس ومن أراد فليذكر التاريخ ليقرأ ويلمس ألوانا من القصص الواقعية التي جسدها التاريخ حقيقةً على صفحاته ولا تنسى حب الزوج لزوجه فتلك الرابطة المقدسة التي تربط بين شخصين غريبين قد وحدَّهما رباط الزوجية ومزجهما فكأنهما روحٌ واحدة في جسمين وقد صور القرآن الكريم هذا الرباط المقدس:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾[1]

صدق الله العظيم

إن هذا التعبير هو أبلغ تعبير يصور هذه الحياة وهنا تعجز البشرية أن تصف مثل هذا الوصف أو تصل إلى بعض هذه المعاني من قريبٍ أو بعيد وهناك الحب الغرامي فحب الغرام قسمٌ من الحب الذي تولَّعت به شريحةٌ من البشرية من ذكرٍ أو أنثى إنه إبتلاءٌ وامتحانٌ لهذه الشريحة فقد يحب شخصٌ شخصاً أو امرأة والطرف الثاني لا يميل له فضلاً عن أن يحبه وهذه من مصائب الحياة التي يتعذب فيها ذلك الإنسان ومن يهواه لا يحس ببلواه أو قد يحب شخصاً أو فتاةً فتبادله حباً بحب ولكنَّ صروف الزمان قد تحولُ بين لقائهما وتفرِّق بينهما فلا يلتقيان في حياةٍ زوجيةٍ ويقدِّران لهذين العاشقين أن يمسيا ويصبحا على سعيرٍ متأجج وحياةٍ مريرة لا يحسان بما فيها من أسرار جمالٍ، فهما غارقان في عذابٍ يتوهجان به في حسراتٍ وتنهيدةٍ كئيبة، كما صور التاريخ أبطالاً كثراً لهذه القصة فهي متلونة الفصول والصور ظلت على صفحات التاريخ تمدُّ الأدب العربي بإثراءٍ ضخم ولا يقتصر هذا اللون على الأدب العربي فالأدب العالمي كالأدب الإنكليزي أو الفرنسي في صفحاته ألوانٌ من هذه الحياة في أساطير عذابٍ أو نعيم فمثال واحد لا على سبيل الحصر فقصيدة لا مارتين على ضفاف بحيرة بورجيه حين التقى بفتاته وضُرب بينهما موعد غرامي للزواج ولكنه عاد العام وعاد لا مارتين ولكن حبيبته (أوليفير) لم تعد أبتلعها موج الزمن وكانت خلف الصفاح فأوحت له ذكرى الحب هذه القصيدة التي ولع بها المفكرون والأدباء فأصبحت قصيدة على مستوى صعيدٍ عالمي يتغنى بها العاشقون المحرومون وذلك بفضل الحب وفي الأدب العربي أبطالٌ لقصصٍ غراميةٍ مثلوا أدوارهم ومن هذه الأبطال «مجنون عامر وليلى، عروة وعفراء، جميل وبثينة» وأمثالهم، فقد حوى

---

(١) سورة البقرة أية رقم ١٨٧.

التاريخ عنهما قصصاً غرامية حتى ارتفعت إلى صور الأساطير ودنيا الخيال وهذه القصص من قصص التاريخ أخذت حيزاً منه وملأت حياةَ البشر فصولاً تقرأها في نواديها وتتشوق إلى ما يدور فيها من محتوى وتسكر بمعانيها لأن الحب هو مزاجٌ طبيعيٌ في فطرة الإنسان فلا حياة بلا حب ولا حب بلا حياة، وقبل أن أدخل إلى قصةٍ من القصص التاريخية بعد هذا التمهيد أحب أن أضيف إلى أفضل أقسام الحب، وأفضله وأعظمه وأنفعه للبشرية دنيا وأخرى، وهو حبك لخالقك فاطر السماوات والأرض ومنشيء كل شئ بحيث لا ترى شيئاً أمامك أو خلفك إلا رأيت الله، فهو المنعم وهو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو معكم أينما كنتم فأفضل حبٍّ حبه ومناجاته وعبادته فمن وصل إلى هذه المرتبة فقد حاز على السعادتين (سعادة الدنيا، وسعادة الآخرة).

وهناك صورٌ من الحب كحب الأبناء لآبائهم وأمهاتهم فإن بينهم إمتزاجاً ورباطاً يثري الحياة ويمدها بألوانٍ من الطمأنينة ولولا هذا الحب المتبادل حباً بحب وإن كان لا يرتفع إلى حب الأب أو حب الأم، ولهذه الظاهرة النفسية والأُسروية لم يوص كتاب الله في تعاليمه الخلقية الآباء أو الأمهات بأبنائهم لأنه حبٌ طبيعي لأن الابن هو قطعةٌ منفصلة من الأب والأم، فمهما كان عاقاً أو غير واصلٍ لأبيه وأمه فلا يعاملانه بمثل ما عاملهم وما أحسن قول الشاعر المتنبي:

إنما أنت والدٌ والأبُ القاطع أحـنـا مـن واصـلِ الأولادِ

إن مصداق هذا البيت يجسد لنا الواقع مشاهداً في حياتنا الأُسروية فنكاد نلمسه ونراه إن حب الحياة فيها منٌّ وإذلال إنما حبُ الأمهات لا منَّ فيه ولا إذلال وكما قال الشاعر :

حـب الـحـيـاةِ بـمـنَّـتـيـنِ وحـبـهـنَّ بـغـيـرِ مـنَّـه

ولا نبخس حق شريحةٍ من الأبناء البارين الذين عشقوا آباءهم وأمهاتهم إن صح هذا التعبير، وهناك حب الوطن، الذي لامس جسد هذا المولود تلك التربة عند أول ما وضِعَ على هذا الكوكب، حيث فتح جفنه في تلك

السماء وعلى ذلك الصعيد فهو يحن إليه حنين الأزهار إلى الطل في القائظة المرمضة فهو لا ينفك عنه كجزءٍ أصبح مركباً هو والوطن كأنهما روحانِ أمتزجا وفَنَيَا في تربةٍ واحدة لا أنفكاك لهما، وقد حثَّ الرسول الأعظم على حب الوطن فقال(حب الوطن من الإيمان)، والذي أفضل من حب الوطن حب الدين وحب الرسول الأعظم الذي هو أفضل حبٍّ بعد حبك لله، فلا يكمل إسلامك كمالاً حقيقياً حتى تحب الرسول وأهل بيته بنص الكتاب الذي أمرك بحبهم، ولا يكمل هذا الحب حتى تحب الرسول وأهل بيته أكثر مما تحب نفسك التي هي أغلى شيءٍ عندك في الحياة، ولابد أن يكون هذا الحب بعد حبك لله مرتبةً فأعلى المراتب هو حب الله وبعده حب الرسولﷺ وبعده حب آل بيته حيث نص على ذلك كتاب الله.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ﴾[1]

﴿قُلۡ مَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٖ فَهُوَ لَكُمۡۖ﴾[2]

صدق الله العظيم

فلولا هذا الحب الممتزج في قلوب البشرية أفاضه الله على قلوبهم ضوءاً روحانياً يضيءُ عتمة الحياة ويخفف من ألامها ومصائبها وجحيمها لانقرضت البشرية من رقعة الحياة إذاً فالحب هو سر البقاء بفيضٍ ومددٍ من خالق البشرية ومؤلف القلوب وموحد الأرواح سبحانه فاطر السماوات والأرض الذي ليس كمثله شيءٌ وهو السميع العليم.

١٥/ ١٠/ ١٤٢٤هـ

٢/ ١٢/ ٢٠٠٣م

---

(١) الآية رقم (٢٣) من سورة الشورى.

(٢) الآية رقم (٤٧) من سورة سبأ.

الشبح
الخامس عشر

فـاتـكَ الـسـربُ ومـا   زودتَ غير الحسراتِ

إن مصداق هذا البيت الذي أعطى الشاعر فيه صورةً متحركة تصور الحسرات واللهفة، والحرمان، نفتتح به قصتنا التي فيها مزيجٌ من هذه الصور الغرامية أو قل من الحب العاثر فالحياة هي مثل الغربال قليلٌ الذي لا يسقط من منخلها كما يسقط الزوان عن الحَب، فقد كان في زمان من الأزمنة وفي قطرٍ من الأقطار فتى جاء لهذه الحياة الصاخبة وضعته أمه وهو لم يعرف ماذا يخبئ له الزمن من خيرٍ أو شرٍ، أو حبٍ أو قلًى، فشبَّ ذلك الطفل حتى تجاوز الخامسة عشرة من عمره وشاءت الظروف أن يلتقي بفتاةٍ في الخامسة عشره من عمرها في روعةِ الشباب والفتنة ناهدة الثديين ناضجة الثمر كوردةٍ نديانة تتفتح لضوءِ الشمس يتلمظ فيها الشباب، وفي قوامها ثبات وتفتن كل من نظر إليها فتنة الساحر الذي يسمر ساحريه بسحره فالتقى ذلك الفتى بالفتاة التي هي من تربه فشرب الحُب كأساً شفافة لنظرةٍ منها حولت قلبه مشدوداً بتلك الفتاة وتعلق بهذه الفتاة، وأمتزج معها امتزاج الروح بالروح وبادلته حباً بحب ولكنه كان حباً عذرياً ليس فيه دنسٌ إنما هو حبٌ خالصٌ لم تشبه أطماعٌ من أطماع هذه الحياة، أو شهوات الشياطين الذين لا يقدرون المرأة وإنما يسيرون حبهم على جسورٍ شهوانية فإذا قضوا مأربهم تركوا تلك الفريسة تتخبط في

سوابيط[1] مظلمة وفي حياةٍ معتمة قلقةٍ كريشةٍ في مهب الريح أما حب هذا الفتى والفتاة فكان حباً طاهراً عذرياً لم يلوثه عبثٌ فهو نقيٌ كضوءِ الشمس لا يزيد هذا الحب على النظرة أو الحديث فكانا مثالي الحبيبين الملَكين وظلا فترةً من الزمن يعيشان على نعمة هذا الحب المقدس فمضيا يخططان لهذا اللقاء السعيد حتى يعيشا كالعصافير في عش دافئٍ هانئٍ ومستقبل مضيء، وينجبا بنيناً من الصالحين. استغرقا زمناً في هذا التخطيط وفي الطريقة التي يفتح منها الباب لدخولهما الحياة الزوجية، ولكنَّ ذلك الفتى فوجئ في مساءٍ من الأمسيات بخبرٍ فظيع وقع على نفسه وقوع الصاعقة التي كادت أن تحرقه وتمزقه أشلاءً متقطعة قال له بعض أصدقائه إن ليلى قد خطبت لشخص يسمى حسن وهذا من ذوي الثروة والقصور والنخيل وقد وافقت ليلى على هذه الخطبة والزواج منه، لم يعرف ذلك الصديق الصلة الروحية العذرية التي تربط بين صديقه عامر وبين ليلى، وما كاد أن يتم كلمته حتى رأى صديقه كاد أن يفارق الحياة فذهل وأخذ يكلم صديقه عامر ماذا أصابك أخبرني أأنقلك إلى الطبيب، فأجابه عامر إن كلمتك هي سهمٌ سدد إلى صميم فؤادي ، فأنا أعيش بدون قلب وهل يبقى أمروٌ في الحياة لا قلب له إن ليلى هي قلبي، ولا تعلم ماذا بيني وبين ليلى من حياةٍ ترتفع عن كل ما في هذه الحياة لا أكاد أن أصدق ما تحدثت به وبرغم ذلك كدت أن أفقد الحياة، فكيف بي عندما أتأكد من صحة هذا النبأ فسوف أفارق هذه الحياة لأنني لا أستطيع أن أبقى بدون ليلى، لا أقول إنها غدرت بي أو خانتني إنما أقول كيف تستطيع ليلى أن تعيش على هذا الكوكب بدون عامر فخرج من عند صديقه، وهو يجرر أذياله ويمضغ أشباح القلق والخوف وجاء إلى دار

---

(١) السوابيط: لهجة شعبية قطيفية منها السباط المظلم حتى يسمى باللهجة القطيفية السباط الظلمي وقد شرحنا كيفية السباط وطبيعته في كتاب خيوط من الشمس فمن أراد معرفة ذلك فليرجع إليه .

ليلى ليلتقي بحبيبته، ويستوضح الخبر هتف بليلى فلم تجبه ثم هتف مراتٍ، ومرات، وبعد لأيٍ وإلحاح خرجت إليه ليلى لم تدخله بيتها كمثل الماضي عندما درجا على ذلك الجو الهادئ الصافي المبطن بالحب والغرام، وبالعفة والكرامة، لم يتمالك عامر حتى هوى على كفها وقبلها وسألها عن الخبر ليلى تختصر لقد شاءت الأقدارُ أن تحول بين سعادتينا وتفرقنا ومنذ اللحظة لا يصح لي التحدث معك لأنني أصبحت لزوجٍ، وأخشى من أعين الناس، وأحاذر على سمعتي، وسمعة زوجي.

عامر: يجيبها والدمع ينسكب من عينيه، ماذا حدث يا ليلى أهكذا تتغيرين بين ليلةٍ وضحاها ماذا حدث أنبئيني لم يكن حبك لي حباً صادقاً أو كان حباً مطلياً بأصباغٍ زائفةٍ تزول عندما تطلع عليها الشمس، أو تهب عليها الريح، وتتعرى فتظهر الحقيقة على طبيعتها ألم أتفق معك على الزواج، ونخطط لمستقبلٍ سعيدٍ وأبناءٍ نجباء كل ذلك قد تناسيتهِ، فماذا حدث، هل هو من مكر النساء إنه من كيدكنَّ إن كيدكنَّ عظيم.

ضاقت ليلى به ذرعا وحارت جواباً فأرادت التفلت منه فأجابته باقتضاب، وبقسوةٍ عنيفة ؛ هذا بابٌ أوصد في وجهك، ومنذ هذه اللحظة لا أراك ولا تراني ثم انسلت ليلى وأغلقت الباب في وجهه، ودخلت دارها لكن العاشق المسكين الذي حب للحب وعاش لليلى سيظل وفياً لليلى، لم يكن عامر نهازاً أو شيطاناً شهوياً ليقضي مآربه من ليلى فيموت الحب بنيل المآرب، فإذا قضى رغبته الجنسية منها تركها كفريسة لا خير فيها، لكنه أحبَّ للحُب، وسيموت في سبيل الحب إن الأوفياء وهم على ندرةٍ وقلةٍ سيظلون أوفياء حتى الموت، لبث عامر في داره وعاش في عزلةٍ صامتةٍ كئيبة يرتقب يومه لأنه سئم الحياة، ولا يرى بصيصاً من ضوء الصباح يشرق في سمائه لينير تلك العتمة النفسية والتجهم الإخفاقي، وذات ليلةٍ من الليالي الشتوية الباردة ساقت له الريح ألحانا فيها أمواج غناء وطرب فكأنما هذه الألحان حركت أوتار قلبه، وأجحت نيران غرامه، وأعادت له أيامه

السعيدة أيام ليلى، وعلا هتاف حول داره باسم ليلى كأنه فاق من خياله ونفض لباس العزلة الصامتة، وخرج من داره ولكنه شهد موكب زفاف ليلى وهي في موكبها تهزج فيه الفتيات ألحاناً وتغردنَّ كما تغرد العصافير والطيور على عَذَبات عرائس الشجر فكان منظر هذا الموكب صدمةً لحياته لم يكن يستطيع الوقوف على قدميه، أو يتحرك فوقف باهتاً حتى اجتازه الموكب ولاحت من ليلى نظرةٌ ساخرة قرأ فيها المكر والشماتة ولكنه لم تأخذه هذه النظرة الكيدية ولم تحول قلبه عن مجراه الغرامي الذي وهبه لليلى. فليلى هي كل شئ، فأخذ يهتف باسم ليلى هي حياتي ودناياي وكان هذا الصدى يتردد في الفضاء ليصل إلى أسماع ليلى ولكن ليلى كان قلبها من صخر أصم أو يكاد يكون أقسى من الصخر لم ترق ليلى لهذا النداء السحري الممزوج بعواطف صادقةٍ تعيشُ كالأمس على أمل الربيع المخضوضر والرجوات المشرقة في قلب ذلك المسكين المحروم.

بقيَ عامر مسمَّراً وحاول أن يجر خطاهُ في مَشهدٍ ذاهلٍ حائر كئيب ليعود لمنزله ويتمنى أن تكون النهاية نهاية هذه الحياة العاثرة بالحب وبالخيبة، ولكنه لم يستطع حتى جاء بعض أقربائه وأعانوه ليعيدوه إلى المنزل، وهم يسلونه ويخففون من ويلاته وآلامه ولكن هذه النداءات والبلاسم لم تفعل شيئاً في ذلك الجرح العميق الذي اتسع وعزَّ على الأطباء علاجه وتنهد عامر بعد أن استلقى على سريره خافتاٍ كخفوت المصباح يرسل أخر خفقةٍ فيه فكان يكتب رسالةً غراميةً بدأ فيها عامر قصته، وكان يلون حروفها فصلاً بعد فصل وفي تلك الفصول رأى أقرباءه على ثغره ابتسامة وفي قلبه الفرحة ولكنه عندما وصل إلى خاتمة القصة لاحت على أسارير وجهه سحب الحزن والخيبة، وهو يصور حبه العاثر الذي خانته امرأة أستودعها قلبه أو قل حياته حتى أتى على آخر الخاتمة فقال لأقرباءه إنني انتهيت من هذه القصة مع ليلى ولا أقول الخائنة ولكن أقول ليلى المخطئة وأختتم قصتي بغروب فجري الذي ما كاد أن يولد من

كمائم حياة السعادة حتى انطفأ، وسار في ليلٍ عاتم ثم أنشد بيت الشريف الرضي :

فــاتــك الــســربُ ومــا زُوِدْتَ غـيـر الـحـسـراتِ

وانتهت القصة بانتهاء حياته

٢٦/ ١٠/ ١٤٢٤ هـ
٢٠ / ١٢/ ٢٠٠٣ م

الشبح

السادس العاشر

حُكيَ أن تاجراً في زمنٍ من الأزمان الماضية أبحر ليمتار بضاعة من الهند فيبتاعها، ويأتي بها إلى وطنه ليبيعها فيه، ولكنَّ حظه غير الموفق أو الموفق، عندما أبحرت السفينةُ وسارت إلى ثبج الموج غامت السماء، وتلبدَّ الضباب، وتراكم الظلام كثيفاً حتى صار طبقاً فوق طبق لا يكاد الشخص أن يرى كفه، وبدأت نذر أشباح العاصفة تنذر بالخطر، ودق جرس الهلاك، وفي لحظاتٍ أخذت السفينة تمور بهم وتتمرجح كالريشة في مهب الريح وطغى الموج على السفينة، وملأها مياهاً، وفي لحظاتٍ إذا بالسفينة تغرق، ويبتلعها الموج إلا أجزاءً منها فكّكَتْها العاصفة، وفصلتها من جسمها، لم يكن التاجر يرى أصحابه أو يروه، إلا أنَّ إرادة الله تركت له لوحاً ودستوراً (باللغة الشعبية البحرية القطيفية) وكانا له درع السلام، وقارب النجاة التي يتمسك بهما فظل يعوم بهما في ثبج هذه الأمواج الصاخبة الهائجة المائجة تحت جنح العواصف وأسجاف الظلام، بقيَ هذا التاجر طوال ليلةٍ ويومٍ يسير على هذا المركب الذي لولا رحمة الله لعجبتَ من بقائه ونجاته، ولكِنَّ الله إذا أراد شيئاً فلا راد لأمره، وهو الذي يرينا الآيات في أنفسنا وفي الآفاق لعلنا نرجع إليه.

بقيَ هذا التاجر يعوم حتى غروب شمس ذلك اليوم، وقد هدأت العاصفة وانجلت سدف الظلام، وبدأت شمس ذلك اليوم تؤذن بالغروب فترسل أشعتها الذهبية على أمواج ذلك البحر تشير في شحوبها إلى غروب

ذلك اليوم، ودلوك الليل كأنها تعطي التاجر حديثاً فيه موعظةٌ، وتنبيهٌ لغروب كل شخصٍ سيغرب كما يغرب اليوم، ولكنَّ هذا التاجر كان موفقاً وسعيداً فقد قذفه حزام السلام، أو قارب النجاة على ضفاف جزيرةٍ، مع غروب الشمس، وكأنها تودعه ويودعها لتسلمه إلى مرفأ السلامة، وعندما وطأت قدمه رمل هذه الجزيرة شهد حشداً ونظَّاراً في هينمةٍ، وموكبٍ تعزفُ فيه الألحان، وتغنى به الأشعار، وعندما أقترب هذا الموكب منه هتف قائدهم وجدناه، فارتاع هذا التاجر لهذا الهتاف أو قل لهذه الكلمة لأنه لا يعرف ما وراء سرها، أو ما يضببها من أطيافٍ مؤلمةٍ أو سعيدةٍ فظل يرتقب الساعة الفاصلة في حياته، حيث إنَّ روعة الموتِ تجلله وتطفئ عليه ستاراً من الحزن والخوف، وهو مكدود الجسم منهك الأعصاب واهي القوة، ولكنه فوجئ من ذلك الموكب بما لا يرتقبه، ولا يدور في حسبانه حيث تقدموا إليه في خضوعٍ وأخذوه في رفقٍ ولين، ودثروه وألبسوه ملابس وقدموا له الطعام والماء، وعندما عادت له طمأنينته، وزال عنه خوفه تقدم له شخصٌ مسؤولٌ يدير الحكم في هذه الجزيرة قال له ما أسمك فأجابه أنَّ اسمي عادل أمتهن التجارة، وبدأ عادل يحدث هذا المسؤول عن فصول قصته، وما مر به من أهوالٍ وما مرت به، وكادت أن تتركَهُ في خبر كان، ويبتلعه الموج كما أبتلع السفينة، وما يدري عن من معه هل أبتلعهم الموج أم نجا منهم ناج، كل ذلك يجهله، ولا يعرف إلا قصته التي مرَّ بها فصلاً بعد فصل، فأجابه المسؤول لا عليك لقد سرت إلى مرفأ الأمان ورسيت على سعادةٍ فتحت أكمام الغيب لتدخل على أرائكها، فتعيش مليكاً تدير مقاليد حكم هذه الجزيرة، فكان جواب عادل، جواباً سلبياً، أنا غريبٌ وليس لي خبرةٌ بإدارة الحكم، فأجابه المسؤول أنا وزير السلطان، وسأنبئك عن كيفية اختيارنا للملك ومدة حكمه، إنَّ هذه الجزيرة درجت على نظامٍ في اختيار حاكمها، وهذا الاختيار شيءٌ غريب لا تكاد أن تصدقه، ومفاجئٌ لك ففيه فجر سعادة الحاكم ونهايته القاتلة المحزنة الممضة أعرني سمعك لأروي لك فصول اختيارنا للسلطان إننا لا نختار سلطاننا

بالأصوات، ولا بالانتخاب، إنما هو اختيارٌ وحشيٌ، وبدائيٌ. فاختيار أهل هذه الجزيرة لحاكمها اختيار شهواني يعيش على حبِّ الجور والدَّم، فعندما تنتهي مدة الحاكم يجتمع أهل الجزيرة، ويخرجون حاكمهم مقيداً إِلى ساحةٍ يسمونها بساحة الموت، فيهزجون حول ذلك السلطان في موكب فرحٍ يسمونه موكب النصر والظفر، فيشعلون في سلطانهم النار، ويحيلونه إلى رمادٍ فيذرونه في الفضاء ثم يتجهون للشاطئ في هذا الموكب. موكب النصر، فعندما تقع أعينهم على شخصٍ من الأشخاص أكان من سكان الجزيرة أو غريباً لا صلة لهم به يعيش على هامش تاريخ الجزيرة وبعيداً عنها كل البعد ينصِّبونه حاكماً ويجلسونه على عرش الملك لمدة عامين وبعد انطوائهما ينفذون فيه أمرهم وليس له الرفض في الاختيار، ولو رفض ذلك الاختيار لكان مصيره المحتوم هو الحرق، فلا مناص لك، ولا سبيل من اثنتين كلتاهما النار، أو قل الموت فتنهد التاجر عادل وقال للوزير لو جعلتك مستشاراً مخلصاً، فماذا تأمرني؛ أو تشير عليَّ، وما رؤيتك في مخرجٍ أخرج منه من هذه الطريق الشائكة التي في أخرها اللحد.

صمت الوزير هنيهةً، فقال له لا أمر لي، وليس لي في هذا النظام يد أو سلطان، إنما أنا أعيش كواحدٍ من أهل هذه الجزيرة، وقد أُفرض عليك كوزيرٍ، وقد يفرض عليك غيري،فإذا كنت مفكراً تزن الأمور بمقاييسٍ تقلب هذه الحياة، وتميت هذه الوحشية المتعطشة للدَّم فتعيدها إلى حياةٍ إنسانية تعيش على النظام والعدل بين مواطنيها، فإن هذه الجزيرة منذ أُسست على ظلمٍ فاتك، وتعيدُ الحياة إلى حياةٍ عادلة مطمئنة تسعد هذه الأمة البائسة التيِ يتحكم في مصيرها حفنةٌ لا تزيد على عدد أصابع الكف إن قدرت على ذلك سُعدتَ وسُعِدَتْ هذه الجزيرة، وأنا أدرتُ معك هذا الحديث حيث لا عينٌ تراقبنا وعندما تتكأ على العرش ستحاط بعين الرقيب تحصي أنفاسك وحركاتك وسكناتك لا تقدر على أن تنبس ببنت شفة، وستعرف هذه الحفنة عندما تتسلم غداً سلطان الحكم، فبات عادل في تلك الليلة لم تداعب عينيه أصابع الكرى، ولم يهدأ قلبه من الوجيب والاضطراب ؛ أوِ

كيف ساقتني الأقدار لماذا لم يبتلعني الموج؟ لا أنا سعيدٌ لأني نجوت من موتٍ كان محتماً لولا عناية الله سأتكل على الذي نجاني وهو خالقي وأنفق أوقاتي، وما يتهيأ لي من أسباب مفاتيح السلطنة في سبيل الخير وإنقاذ هذه الجزيرة نعم سأبذل كل ما أستطيعه من جهدٍ لأخلص من هذه الأزمة، ومن هذه الظلمة التي لا يكاد يفلت منها أحدٌ إنها ستطبق بليلها على كل ملكٍ ينام على سريرها ويغفو تحت ظلها سأمزق هذا الليل، وسأحيله إلى نهار من كان مع الله كان الله معه، كان عادل غارقاً في التفكير يعيش على جناح قلقٍ مضطربٍ، ووسادةٍ محمومةٍ لا يكاد رأسه أن يستقر عليها، وفي هذه الغمرة دخل عليه فتًى ليقدم له وجبة الإفطار، وفيها ما لذَّ وطاب لكنَّ عادلاً لم يستطع أن يتناول من هذه المأدبة إلا قليلاً من الماء وكوباً من الحليب ثم فوجئ بموكبٍ من الخدم، والجواري فأدخلوه ليستحم ويلبسوه لباس الملك وينثروا عليه الزهر والرياحين ويغرقوه بقوارير العطر، ليس له أمرٌ أو اختيار فهو يتحرك كالإنسان الروبوت الذي يحركه الزر الكهربائي

أجلسوه على طنفسة، وبعد هنيهة دخل الوزير ومعه الثلة التي تدير مفاتيح الملك وتختار الملكة وتنزله من العرش إلى القبر فتقدم له الوزير وحيَّاه ثم قدم له من كان معه بالرتب التي يحملونها وبعد التعارف تقدم القائد الذي يدعى سعد وهو أحد الخمسة الذين حدثه عنهم الوزير، ثم أخذوه إلى عربةٍ مزينة وأركبوه فسارت به العربة إلى ساحةٍ مكتظة وفي وسطها مرتفع عالٍ يشبه سدة الملك فأجلسوه عليها وجلس عن يمينه سعد ليتلو خطبة العرش فبعد أن عرفهم بمليكهم واختيارهم له ومدة حكمه تلا الوثيقة التي يوقع عليها الملك بما فيها من بنودٍ وإن هذه الوثيقة تحتوي على بنودٍ سبعة تنص هذه البنود:

البند الأول: إن الملك لا يحق له أن يعزل أحداً أو يعين أو يتصرف في ميزانية الدولة.

البند الثاني: الفصل والعزل يعود لسعد ورفقائه.

البند الثالث: الملك له مرتب شهري يستلمه عن طريق ديوانه.

البند الرابع: يفرض عليه الوزير وليس له ردَّه أو اختيار غيره.

البند الخامس: مدة حكمه عامان.

البند السادس: لا يجدد له ثانيةً.

البند السابع: عندما تنتهي مدة الحكم يفعل به سعد، ورفقائه ما يشاؤون فيه. تردد الملك في توقيعه لهذه الوثيقة وقال لسعد لو خيرتموني أن أتنازل عن هذا الحكم وعن هذه الوثيقة وأعيش معكم كمواطن عادي وأرسل إلى بلادي لأحضر كل ما أملكه وأنفقه في بلادكم لكان خيراً لي، ففاجأهُ سعد بكلمةٍ فيها تحديدٌ ومقيدة بين اثنتين بحيث يكون ملكاً أو الموت ولا خيار لك ولا مفر عن هذين الخيارين أو تهيأ لتنفيذ الإعدام والحرق فاضطر عادل للتوقيع وقبول كل ما أملوه من بنود فأصبح ملكاً لهذه الجزيرة بلا مُلك، إنما هو يشبه دُميةً لا حراك بها. ثم قرر سعد فرض زوجٍ عليه بتدبيرٍ واختيارٍ منهم لتكون رقيبةً داخلية ترصده في نومه وأكله وفي حركاته وسكناته فبنى بها ولا خيار له في هذه الزيجة، ولم يمضِ على الزواج سوى بضعة أشهر حتى حملت منه، والقانون عند هؤلاء المتوحشين الأَّ تحمل الزوجة من ملكهم، وإذا وافقت الصدف فحملت أسقطوها قبل أن يبلغ اكتمال الجنين فكان حمل هذا الوليد فجراً إلى الملك فتح أملا مشرق من كمائم الغيب، وكانت هذه المرأة ذات جمالٍ وعقلٍ ودهاءٍ حيث اختارتها هذه العصبة الشريرة لما رأوا من إشارات ذكاء ومكر تلوح على مخيلة مرشحهم للملك وما فيه من حصافة، ودهاء وسياسة ومكر يحاور ويداور ويبطن أموره بأغلفةٍ سرية فنما بين الزوجين حبٌ نبتت أصابعه في قلبيهما، فأذاعت العطر والتفا في جسدين كروحٍ واحدة في جسدٍ واحد فخشيت على جنينها، وعلى زوجها فأخذت مع الملك تحيك وراء هذا

الظلام مؤامرة تدبيرٍ للتخلص من هذه العصبة الشيطانية التي يقيدها سعد وخمسة نفرٍ لا يزيدون، ولكنهم يقبضون على البلاد قبضة حديدية لا تكاد تفلت من أيديهم وقد مر عليهم قرابة نصف قرنٍ وهم يتحكمون في أبناء هذه الجزيرة في دمائهم وفي أنفسهم وفروجهم وأموالهم ونسائهم لا يستطيع فرد أو مجموعة أن تنبس ببنت شفة فضلاً أن تردَّ لهم أمراً يريدون تنفيذه، فما الحيلة والوصول إلى التخلص من هؤلاء، وفي ليلةٍ من ليالي الشتاء القارة برق أملٌ كضوء الفجر في عين ست النساء كما تسمى في الجزيرة وفي القصر، برق هذا الأمل كأنوارٍ تبدد أشباح الظلام، وطيوف المخاوف والقلق أوحى لها ضميرها خطةً لا تنجو منها العصابة الشريرة، ولم تذعها لأحد حتى لزوجها، طلبت من أحد الخدم أن يأتي بأحد الخياطين إلى القصر، فطلبت من الخياط أن يعمل لإحدى جواريها بدلة عسكرية كبدلة رئيس القواد المستعمل في تلك الجزيرة لم يسأل الخياط عن هذه الطلبة فصنع البدلة وغلفها وجاء بها إلى القصر فتناولتها ست النساء من جاريتها، وجلست مع زوجها لتطلعه على الخطة الجهنمية وبدأت ترسم له الخطة بحيث لا يعرف من تلك الرسمة أحدٌ مهما كان فإن عرف أحد فالموت المحتَّم، رسمت له الخطة وهي تشرحها وتقول أيها الحبيب عليك أن تقوم بجزء من هذه الخطة، وبقية الخطة سأنفذها أنا، وعليك أن تبدأ بدعوةٍ لهؤلاء الخمسة، ولا يشترك معهم أحدٌ في هذه الجلسة وأبلغهم أن هذه الدعوة إنها دعوةٌ هامة تتعلق بمصير حياتنا، وحياة الجزيرة، ولا بد أن تكون سرية ولا يطلع عليها أحدٌ خشية أن تتسرب أخبارها فيكون حليفنا السلب هي سريةٌ بيني وبينكم، ومستعجلةٌ خشية الفوت وعندما يأتون سنشغلهم بمأدبةٍ تحمل ألواناً من الطعام والخمر، وهذه المأدبة ستعدها جاريات القصر وسوف أترك جندياً من جند القصر على غرفة الاجتماع السرية ثم سكتت ولتكن دعوتك لهم غداً في الجلسة الرسمية، ولا أحد يعرف عن هذه الدعوة إلا أنت وهم، كان الزمن يسرع في صالح هذا الملك، وكل شئٍ كأنه يسير في يديه. دعاهم فاستجابوا، واجتمعوا قبل أن

يأتوا للاجتماع وكل منهم يضرب أخماساً في أسداسٍ، ما هذه الدعوة وهذا أول ملك يقوم لنا بمثل هذه الدعوة ويحاذر على هذه المملكة، ويخشى عليها الضياع والمؤامرات لعله يريد أن يقنعنا لنبقيه عندما تنقضي مدة ملكه لن نستجيب له وسوف نذيقه الموت كمن سبقه، وفي تلك الليلة الذي تم فيها الاجتماع وبعد أن أخذوا مقاعدهم وتقدموا للأكل، ودارت عليهم كؤوس الخمر وغنَّت لهم جارية ألحاناً تسكرهم وتنسيهم كل ما في الحياة وكانت إحدى الجواري لديها إشارةٌ من ست النساء ربة القصر وهي كلمة السر لا تعرفها إلا الجارية ومولاتها، فارتدت ست النساء بدلة القائد المعدَّة لها وحملت المسدس فهي لا تختلف عن قائد الجيش الذي تزيت بزيه وهو من المخلصين لسعد وعصبته وأحد الدعامات التي ترتكز عليها العصبة في الشرور فلما رآه الجندي أخذ له التحية وفتح باب الغرفة فدخل القائد بدون سلامٍ، ولكنَّ سلامه الرصاص.. الرصاص الذي فيه تحية الموت فحياهم بتلك الرصاصات فقتل الخمسة، وأخذت زوجها، وأخرجت الجواري وأقفلت الباب ثم وضعت الجندي في غرفة أخرى وأقفلت عليه الباب، ولم يعرف زوجها أن زوجته هي التي نفذت هذا كله لأنها لم تطلعه على بقية خطة المؤامرة؛ وبعد تنفيذها، بدأت تشرح لزوجها أنها هي التي قامت بالأمر وقد بقيَ عليها قتل القائد الذي هو قائد الجيش ونائبه فأرسلت لهما رسالةً من سعد يطلب منهما الحضور إلى القصر الملكي لمهمة خطيرة وأعدَّت لهما مأدبة في غرفة أخرى لا صلة لها بتلك الغرف وأمرت زوجها عندما يأتيا يستقبلهما ويدخلهما الغرفة فإذا سألوا عن سعد وعن المهمة يسليهما بحكاياتٍ ويخبرهما ريثما ينتهي سعد ورفاقه من إعداد الخطة سيقابلونه ليقوما بالتنفيذ ووقف جنديٌ لهما على باب تلك الغرفة فقام الملك يوهمهما كأنه يريد أن يدخل على سعد ليخبره بحضورهما فخرج وطلب من الجندي أن يأتي إلى غرفة أخرى ليأخذ قسطاً من الراحة حتى تتم المؤامرة وتحكم، ثم عاد فإذا القائد الذي يرتدي البدلة التي تماثل ذلك القائد الذي دخل عليهما تلك الغرفة وحياهم التحية

العسكرية ولكنها تحية الرصاص تحية الموت فقضى عليهما وأقفلا الغرفة، وبقيت الجواري والجنديان معتقلون، وعادت مع زوجها إلى غرفة النوم لتوضع الخطة التنفيذية التي تمكن زوجها من أن يصبح ملكاً يدير دفة الحكم على منهجيةٍ قانونيةٍ دستورية، وينصف بين الرعية ويرفع عنهم الحيف والذل، فوضعت له خطة في الصباح عندما يجلس في الديوان الرسمي، وكيف يبدأ؛ وكيف ينتهي، وعندما جاء أصدر مرسوماً بترفيع بعض الجنود إلى ضباطاً وعين ضابط كرئيس لأركان الجيش، وقائداً ووزير دفاع؛ كلهم من الجنود والضباط، فاهتز الديوان والقصر وسرت نبأةٌ تهز قلب تلك الجزيرة كيف استطاع الملك أن يصبح جريئاً ويقوم بهذا العمل الضخم، ولا يعارض من سعد ورفاقه، لقد غير هذا الملك مجرى الحياة في هذه الجزيرة، وإننا لا نعرف السر الذي يكمن وراء هذه التعيينات، ثم أصدر مرسوماً فعين الوزير الذي أشار عليه بالتخلص إذا استطاع من هذه العصبة الشريرة ولكن الوزير كان حائراً وهو يجهل السر كما يجهله المواطنون كيف جرؤ هذا الملك على هذا الفعل والتعيينات بدون الرجوع لتلك العصبة، فانطوى ذلك اليوم حافلاً بالأحداث الاجتماعية والتغييرات السياسية وتلاه يومٌ ثانٍ وثالث، وكل شيءٍ يتبدَّل في الجزيرة تبدُّلاً هائلاً في جميع الأجهزة الحكومية والأدوات السياسية، وطلب من المفكرين أن يضعوا دستوراً لهذه المملكة يسير الحكم فيه على بنود ذلك الدستور ويضمن حقوق كل فرد من المواطنين وحرية الفكر والتعبير،وأن يشكل مجلس شعب عن طريق الانتخاب الشعبي، وأن يكون الحكم ملكياً دستورياً فزاد الشعب تعجباً حيث لم يروا تلك العصابة التي تشرب دماءهم وتستبيح أعراضهم تم دفن تلك الجثث تحت جنح الظلام، ولا يعرف ماذا حدث وراء الكواليس من اغتيال أو قتلٍ لتلك العصابة، وكانت هذه الأوامر من الملك هي توجيهات زوجه ست النساء، فهي تدير الملك من وراء قفاز زوجها وبعد تلك الإجراءات النظامية شكل الملك لجنة لإحصاء ما تملكه تلك العصابة وإعادتها للدولة حيث أنهم لا يملكون شيئاً فزاد الناس عجباً

واستغراباً كيف يجرؤ ذلك الملك على الخطوات الجريئة التي ما استطاع أحدٌ من هذه الجزيرة أن يصل إلى ما وصل إليه هذا الملك من إصلاحات، وكانت زوجه هي التي تسدده وتشترك معه في إدارة الحكم، وبفضل هذه المرأة وبعقل هذا الملك أصبحت هذه الجزيرة ترفلُ في نعمة السعادة وتحت ضوءٍ من أضواء صباح النعم، وقد نحر عنها الليل، وأشرق فجرٌ في سماء حياتها.

١١/١١/١٤٢٤ هـ
٠٣/٠١/٢٠٠٤ م

الشبح السابع عشر

إن التاريخ وثيقةٌ من وثائق الحياة يسجل ما مر في صفحاتها من أحداثٍ وقضايا وأخطار، بيد أن الأمانة التاريخية هي العنصر الأساسي في تدوين هذه الحوادث أو تلك القضايا، فمن لا ضمير له لا أمانة له، وقد لعبت الأهواء السياسية بالتاريخ كل اللعب فجاء لنا التاريخ يصور ويسطر ما يمليه عليه الحكام ويسيروه في مصالحهم ورغباتهم، وتدخلوا حتى في الفُتية الشرعية فسخروها تدور في فلكهم فأنت إذا قرأت التاريخ تشاهد مناظر وشريطاً ينقل لك أشياء عجيبةً غريبة فالتاريخ يزخر بتلك الصور، وقد تفاجأ في تاريخك المعاصر بحدثٍ يمر عليك وتشاهد محتوياته أمام عينيك ولكن عندما تذيعه بعض الصحف وتقرأه تجد صورته مغايرةً للمنظر الذي مر حدثه وشاهدته بأم عينيك أو تزيد فيه أموراً لا ربط لها بذلك الحدث أو تنقص من أطرافه أجزاءً وذلك حسب المصالح المادية والسياسية أو قد تنشئه إنشاءً من سماء الخيال فترويه كحقيقةٍ واقعية حتى يصبح كأن له ظلاً من الواقع فتعجب كل العجب من أين جاء هذا الحدث وكيف صح لهذا المؤرخ أو الصحفي أو الكاتب أن اخترع هذا الحدث ودونه، ولكنَّ المفاجآت في هذه الحياة والأطماع التي تسير الإنسان وتمده بألوانٍ من الرغبات الدنيئة تنزله إلى هذا المستوى لو فكر هذا المؤرخ أو الأديب فكرةً نيرةً أضاءت قلبه ونورته لما كان مسخراً لما يملى عليه ويقول ما يقال له فهو الصدى الحاكي للرغبات السياسية، أو الأهواء الشخصية، فالحاضر قد يعطينا فكرةً عن بعض التاريخ الماضي الذي لعبت به الأهواء، وسيرته في

طريقٍ ملتوية رغبة من سياسيي ذلك العصر، فتقلب الحقائق وكأنها ترويها عن تاريخ صدقٍ وأمانة لو فكرنا قليلاً، وآمنا بالله وصحا ضميرنا وانتعش من نشوة الأطماع لسرنا في سبيلِ ألحبِ، وفي ضوءٍ من أشعة الإسلام وهدى الرسول الخاتم، وأهل بيته الأطهار الذين لا يزالون ألأدلاء على السعادتين الدنيا والآخرى، ولكننا تنكبنا هذه الطريق، وابتعدنا عنها كل البعد وسرنا في دروبٍ ملتوية يبطنها الضباب، وينشر عليها ليلٌ قاتمٌ انحرفنا كل الانحراف عن السير على ضوء مصباح الرسالة وأهل بيته، ولم نأخذ ما في القرآن من أسرارٍ كونية جاء بها القرآن وجعلنا القرآن كتعويذةٍ لا أقل ولا أكثر نغلفها ونضعها في صدور بعض الأطفال، ولم نتدبره ونأخذ ما فيه من أسرارٍ كونية ونطبقها عملياً، ولهذه الانحرافات تغلب أعداؤنا علينا لأنهم أخذوا ما في القرآن من أسرارٍ كونية، وطبقوه عملياً في حياتهم، إن الغرب أخذ ما في القرآن من صورٍ كونية، ولم يأخذ ما فيه من أوامر عباديَّه ففاز في حياته الدنيوية، وإن كان ليس له في الآخرة من نصيب، فوصل الغرب لما وصل إليه بفضل القرآن وتعاليم نبينا الخاتم ﷺ وما في نهج البلاغة من تعاليم علميةٍ وخلقيةٍ وسياسية إلى أمثال تلك الصور التي تفيد البشرية في حياتها وعلوم أهل البيت كالكيمياء، والرياضيات، وكان الظفر للغرب في هذه الناحية، الناحية المادية التي بها سيطر الغرب على العالم، وأصبحت الولايات المتحدة هي المسيطر الأول بلا منازع للتخطيط العلمي الذي أخذته وعملت به من هذه الأسرار حتى وصلت إلى التكنولوجيا العلمية التي بهرت بعض العقول أو قل كل العقول، ولم يعرف بعض المفكرين السر في ذلك الإنجاز العلمي وظنه من وليدة أفكار الولايات المتحدة وأوروبا وإنما يعود الفضل لهذا الإنجاز إلى العلوم القرآنية، وما فيها من دقائق أهملها أصحابها واحتضنها أعداؤها، فالمسلمون لم يأخذوا منه إلا الجانب العبادي وليتهم طبقوا الجانب العبادي عملياً لا لفظياً، وليتنا احتوينا الجانب العبادي مع جانب الإنجاز العلمي الذي فيه سر هذه الأكوان وكل ما في الحياة، فلا تعارض بينهما في التطبيق الواقعي على

صعيد الحياة وما جاء هذا الدين إلا لسعادة المسلمين لكي يفوزوا بالدارين ويسيطروا على هذا العالم ويديروه في عدلٍ ويفرشوه بالرخاء والنعيم فتحنو ظلالهم على كل بائسٍ، وكل جريحٍ من هذه الإنسانية بدون تفاضلٍ أو تمييز كما نص كتاب الله إنما الفارق هو التقوى لا فضل لغنيكم على فقيركم أو حركم على عبدكم ولا أبيض على أسود ولا لعربيٍ على عجمي ولا لقرشي على غير قرشي كلكم في الحق سواء وهذا كتاب الله ينادينا ويصرخ فينا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ولم يقل أغناكم أو عربيكم أو قرشيكم فمتى نفيق من السكرة ونصحوا على جناحِ الود والوئام، وننبذ الطائفية البغيضة التي فرَّقت المسلمين وتركتهم شيعاً والعنصرية هذه المعاول التي استغلها الذين لا تهمهم إلا مصالحهم المادية ففرقوا المسلمين شيعاً، وأبعدوهم عن ما انتدبه لهم الإسلام فعاشوا أذلاء بعد أن كانوا أعزاء مسيطراً عليهم وكانوا مسيطرين على العالم يتحكمون في ثروته لا يستطيع الغرب أن ينازعهم بل كان خاضعاً لسلطانهم يريد المسالمة منهم والمجاملة إذا لم نعد إلى تطبيق تعاليم الرسول ﷺ وأهل بيته عملياً لا قولاً لن نستطيع أن ننهض ولن ننهض، وسنظل مسيطراً علينا ألا ترى أذل الأمم وأصغرها (اليهود) الذين هم حفنة من البشر المجمعة من شتّى بقاع الأرض وشعوبها أصبحت دولة تتحكم في العالم وتسرح وتمرح تتحكم بيد وتضرب بأخرى، ولا دافع ولا مانع إلا الله كلنا صامتون لا تنطق إلا الجراح.جراح فلسطين في كل لحظةٍ تنطق هذه الجراح ولكنها لا تسمع صوتاً أو آسياً يضمد جراحها أو يخفف ويلاتها؟ مهلاً أيها الأخوة سيجيءُ من يضمد هذه الجراح، هو الإمام المنتظر الذي وعد به النبي الخاتم ﷺ فقد بلغ السيل الزبى وطغى الماءُ فما هو إلا الطوفان.

٢٣/١١/١٤٢٤ هـ

١٥/٠١/٢٠٠٤ م

الشبح
الثامن عشر

جلس خالد مع حسن يديران قصة المجتمع الحاضر وينظران في صفحات الماضي فبدأ خالد يحدِّث حسن ويقص عليه صفحات من الماضي وكيف كان يعيش آباؤه وأجداده في هذه الحياة، وأين موقعهم من صميمها ونشاطهم في أعمالهم، وفي جهادهم للظلَمَةِ والطغاة، قال حسن أراك يا خالد تحدثت عن حياةٍ فضلى إذا قستها بمقاييس عصرنا إننا نعيش في القرن الحادي والعشرين عصر الإنجاز العلمي، عصر الكهرباء، عصر الذَّرة، وعصر الإنترنت الذي هو معجزة العصر وإن كان عصر القرن العشرين ظهرت فيه معجزات فكرية أوجدها العلم الذي جاءنا بفضل الله، ومن فجر أنوار الدعوة الإسلامية، وتطبيق ما في القرآن من أسرارٍ كونية أوَ لست أيها الأخ تحس بأن هذا العصر أي أنه قرن المدنية والحضارة إننا نعيش كإنسانٍ يعامل في كل حقوقه كإنسانٍ مدني له حقوقه ومميزاته وحريته الفكرية في مجتمعه. أطرق خالد ثواني ثم حرك رأسه ساخراً وعلى ثغره بسمةٌ صفراء ترمز إلى سرٍّ بعيد وفي عينيه دمعةٌ وقال لا يأخي إن البشرية انحدرت في هذا العصر من القمم إلى المنحدرات، لم يؤثر هذا الإنجاز العلمي وهذه الحضارة في سلوكنا وفي أخلاقنا إنما جاءت لكسب الثروة المادية وللمادة فحسب لا للإنجاز الخلقي وتحسين السلوك الإنساني، ألا ترى أن هذا المجتمع الذي يدعى بالمجتمع المدني الحضاري تحول إلى وحشٍ كآسادٍ بل الآساد أفضل من هذا المجتمع لأن الآساد لا تأكل بعضها بعضاً وقد تعفُّ عن افتراس البشر إذا شبعت وملأت بطونها أما أفراد المسمى بهذا الإنسان فلا يعفُّ عن إبن جلدته فهو يأكل بعضهم بعضاً

ويسفك الدماء ويروع الآمنين وبين يديك المذياع أو التلفزة ما عليك إلا أن تدير مفتاحيهما لتنظر المشاهد التي تدمي القلب وتروع الضمير في كل يومٍ نشاهد مناظر لجثث أبرياء أُغتيلت تحت الظلام بدون أن تقترف ذنباً، كثيرون من أولئك الأبرياء من نساءٍ وأطفالٍ هم ضحايا لا تكاد أن تحصيها أو تحصرها في مصرٍ من الأمصار، ولكنَّ الكثرة الكاثرة ويا للأسف والأسى يحزُّ في قلبي أقولها هي بين المسلمين يقتلون بعضهم بعضاً، لم يكفهم ما تقوم به صهيون من مجازرَ في فلسطين هل هناك يدٌ خفية خلف الستار لتشغل المسلمين بأنفسهم حتى يفرغ اليهود لتنفيذ مآربهم ويسيرون في جو مبطن بالدماء وبالإبادة فيستيقظون على حلمهم الذي يراودهم (ملكك يا إسرائيل من النيل إلى الفرات) لا أدري ماذا أفكر أو أقول غير إننا نعيش على دنيا قلقة مضطربة آبت بنا إلى حياةٍ أظلم من حياة الجاهلية فإن الجاهليين لا يقتلون الأبرياء والنساء والأطفال فضلاً عن القتل، لقد رجعنا القهقرى إلى عصرٍ مظلم برغم هذا الإنجاز العلمي فإن الأمن والراحة والطمأنينة هما الحياة،فلا حياة بلا أمن. لم يتصور الفرد منا أن ننزلق إلى حياة الوحوش لماذا لا نوجه خنجرنا إلى قلب اليهود، ولماذا نقتل بعضنا البعض، فختم خالد هذا الحديث. فصمت حسن هنيهةً وتنهد وبدأ يعلق على مقولة خالد يا أخي خالد لقد أدميت قلبي لماذا نحن المسلمين نحس بهذا الخطر المحدِّق بنا، وما هذه الفرقة والخلافات بيننا التي فرقتنا حتى صرنا أيدي سبا لماذا لا نتكتل كوحدة في بنيانٍ مرصوص، ويكون هدفنا هو القضاء على العدو الصهيوني، لماذا نكدس السلاح ولا نحارب به اليهود بل نقتل به أنفسنا كالمناظر الدامية في العراق أوَ ليس المسلمون أكثر عدداً وثروة وسيطرة على هذا العالم لو طبقوا مبادئهم الإسلامية التطبيق الواقعي؟ أجبني يا خالد! فتحدث خالد ليجيب حسن أخي حسن لقد فاتك سرٌّ هو مفتاح سعادتنا لو استقمنا على مبادئنا الإسلامية وطبقناها عملياً ونحن لا نحتاج لغيرنا لوجود الثروات الطبيعية في بلادنا، والنعم التي منحنا إياها خالقنا وأكبر نعمة هي نعمة الإسلام، يا

أخي لو أن هذه الكنوز استعملناها سلاماً لكنا اليوم سادة العالم وسيطرنا عليه بدون منازع لقد سيطر آباؤنا في الزمن الماضي عندما كانوا يحاربون وهم يطبقون هذا المبدأ المقدس مبدأ الإسلام وكانوا يحاربون باسمه و على ضوء هذه المبادئ ملكوا العالم وأصبحت مفاتيحه في أيديهم يديرونها حيث شاؤوا ولما دبَّ الخلاف بين المسلمين وتفرقوا شيبعاً وفرَّخت في أجوائهم الطائفية البغيضة والعنصرية المقيتة أصبحنا يتحكم فينا الغرب والشرق كيف أرادا، ويوجهان حكام المسلمين إلى الطريقة التي تنعشهما وتخدم مصالحهما فمتى نفيق من سباتنا ونتناسى أحقادنا وأضغاننا ونعمل يداً واحدة بدون طائفية أو عنصرية للمصلحة العامة لإنعاش الوطن، فالوطن للجميع والدين لله ليس بيدك الثواب أو العقاب كلنا صائرون لفاطر السماوات والأرض ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[1] فبيده الجزاء والعقاب ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾[2] له الملك في الأولى والآخرة لا منازع له فهو مالك كل شيء بيده الخير وهو على كل شئ قدير.

٢٩/١١/١٤٢٤ هـ

٢١/٠١/٢٠٠٤ م

---

(١) سورة الشعراء الآية رقم (٠٨٧) ،(٨٨).

(٢) سورة الفاتحة الآية رقم (٤).

الشبح
التاسع عشر

كانت حكاياتٌ تمر على هامش الحياة وعلى حواشي التاريخ تمر هذه الحكايات كما يمر يومنا هذا، وقد تقرأ للتسلية أو للجدِّ أو للعبرة قصصاً يديرها مؤرخو التاريخ ويذيعونها في هذا العالم الذي هو صفحةٌ من تلك الحياة القصصية، إننا نقرأ هذه القصص أو هذه الحكايات لنلهو بها وبعضنا يقرأها ليكتب ما في يومه لأجيالٍ قادمة وآخرون يأخذون من حروفها عبراً وتجارباً يطبقونها على صعيدهم الواقعي ويستفيدون من تلك الأيام التي مر بها الأوائل ليدرؤوا أخطار الحاضر إن صح لهم هذا الدرء ولكنني مما أستشففه من كوى اليوم أن أبناء حاضرنا انصرفوا إلى موارد لهوٍ ولعبٍ تجرهم إلى إنزلقاتٍ يضيع في متاهاتها هذا الشباب المتوثب الطامح هل هذا الضياع مسؤولية الآباء أو تشارك فيه المدرسة؟ فكلاهما مسؤولان عن تربية هذا الناشئ الذي لا يزال برعماً لم يتفتح لضوء الفجر فهو في غمرةٍ من غمرات الحياة ولا تنسى دور الأم فإن لها الدور الأكبر لأن الأم مدرسةٌ إذا أعددتها أعددت أمةً تتسنم ذروة المجد فالشعوب لا تتثقف ولا تنهض ولا تنال الفضيلة إلا إذا كانت الأم مدرسةً بكل معنى هذه الكلمة وتتمثل في الأم تمثل واقعياً لا لفظياً، وما توطئتي هذه أو هذا الحديث الذي أدرته إلا لأفتح صفحاتٍ من التاريخ لأمثل قصتي بطلين ولع بهما القاصون وتحدَّث عنهما العاشقون كثيراً وهما على استمرارية بطلان في قصصنا التاريخية أو الغرامية شهريار وشهر زاد فشهريار يمثل الطغيان والظلم،

الظلم لمجتمعه وللمرأة كجنسٍ يخصها بلونٍ من ألوان الإهانة والتحقير وفي غده فريسةً كأحدى الضحايا التي يضحي بها في كل يومٍ، أخذ شهريار ردحاً من الزمن يتزوج الفتاة كزهرة لم تذع عطرها فيلامس أكمامها ويمزقه وفي غدٍ بدون رأفةٍ ولا مسؤولية سينحر ضحيته كما تنحر الخراف، وينثرها أشلاء توضع في الرغام، هكذا شهريار يمر بهؤلاء الفتيات بلا معترضٍ عليه فيما يعمله في كل يومٍ ضحية يبعثر أشلاءها في الرغام ومن يقوى أن يعترض على من يصور نفسه رباً مالكاً لهذه المملكة التي يحكمها ويراهم عبيداً له إنما طاعته شرفٌ لهم لم يكن أحدٌ في قدرته أن يتنفس فضلاً عن استنكار ينبعث من صدرٍ محزون مثكول، المدينة كلها صامتة تعيش على أتيٍّ من الرعب، وجنحٍ من القلق، وصعيدٍ مضمخٍ بالدماء، تموج بها أمواجٌ كأنها سفينٌ وسط الدأماء تحت جنحٍ من الظلام لا يبصر ربانها أين مسارها، حتى كادت أن ترتطم بصخورٍ عاتية فتغرق فكان الموت أعذب عندها من هذه الحياة الذليلة التي وضعت في أعناقهم أغلالاً ونيراً، فهم لا يزيدون عن عبيدٍ يعيشون في ذُلٍ وبؤسٍ أذل من قوم سبأ، يستعبد رجالهم ويقتل نساءهم بدون جرمٍ اقترفوه وإنما هي شهوةٌ شيطانية ينزو بها من أفق قوةٍ على ضعفاء لا حول لهم ولا قوة غير أن إرادة الله التي هي فوق كل شيءٍ أنبتت لهم وردةً وأطلعت لهم في ذلك الحقل المحفوف بأشواك العسف والظلام والظلم فتاةً (شهرزاد) جاءت وسط حياةٍ مفعمة بألوان العسف والهوان فماذا تترقب أن تكون هذه الفتاة ولا سيما إنها مرأةٌ، والمرأة عندنا في الشرق أذلُّ وأحقر من أثاثٍ مستهلكٍ لا نقيم للمرأةِ وزناً فنحن بعيدون كل البعد عن إنصافها بل لا نعطيها قسطاً من التقدير إنما هي كائنٌ محقَّرٌ كأنها لم تكن إنسانة تحمل روعة هذه الحياة وجمالها، وهي أمٌ وأختٌ وبنتٌ ومنشئة أجيال، ومربية نشئ، فهي الرئة التي يتنفس منها هذا المجتمع ولا تصلح الحياة بلا أنثى ولولا الأنثى لكانت هذه الحياة صحراءَ مجدبة لا أنيس فيها ولا سمير، فالحياة لا تتم إلا بذكورٍ وإناث وهما

عنصران مزيجان تتألف منهما هذه الدنيا وبهما تتزن وتستمر استمرارية البقاء بمشيئة خالقهما وموجدهما فكيف نتصور مجتمعاً ينظر إلى المرأة بهذا المنظار الأسود الذي لا يبصر منها مستواها الإنساني ومعناها الروحيُّ إنما يراها جسداً شهوانياً يفترسها كما يفترس السبع فريسته ويقتلها قد يعفُّ السبع عن فريسته ولكنَّ الإنسان هو أقسى ضراوةً من هذا السبع المتوحش فماذا تصنع المرأة في مجتمعٍ منغلقٍ على الحياة النسائية وياليته كان منغلقا فحسب إنما لا يرى لهذه الكائنة قدر أنملةٍ في هذه الدنيا وظل شهريار مستمراً في سيرته الوحشية، وليس هناك نأمةً ترتفع لتستنكر هذا العمل الوحشي، وتوقف هذا الطغيان وتعيده إلى إنسان يعرف حقيقته ومصيره، ولهذه العوامل استمر شهريار حتى كادت المدينة أن تجدب من هذه الزهرات لأنها يبست في ربيعها واحدة بعد واحدة، وشهريار لا يفتر، وفي أُمسيةٍ من أمسياته اللاهفة إلى الضحايا طلب من وزيره إحضار فتاةٍ له غداً وألا سيكون الضحية عوضاً عن ضحاياه التي أجدبت من المدينة فهو لابد أن يتلذذ بالدم، ويرَّوي رغباته الجنسية وشهواته الانتقامية فذهب الوزير إلى بيته وهو على أحر من الذرَّة، وكان لا يشعر هل هو يعيش على هذه الحياة أو زلت به قدماه إلى قبره الموعود، فجاءت ابنته وقد رأت والدها لا يكاد يبصر ما بين يديه حتى أمسى في ذهولٍ أغرقه وأنساه أثمن ما عنده وسيطرت على عقله حتى كاد يجن فربتت على كتفيه وقالت لأبيها ماذا عراك من خطبٍ حول حياتك فجأة إلى هذا الحال المشاهد، فتنفس الصعداء وبدأ يقص عليها ما طلبه شهريار منه فكان جوابها لأبيها فلأكن الضحية لك ولهذا الوطن المنكوب، فدار بينها وبين أبيها حوارٌ استغرق الليل في كرٍ وفرٍ، وهي ثابتةٌ لم تتزعزع حول تفكيرها سأكون ضحيةً لهذا الوطن أو أنقذه من هذا الطاغية المتمرد الذي لا يرانا إلا عبيداً. اذهب له وقل إن الجوهرة التي تطلبها وجدتها وسأقدمها هديةً هي ابنتي شهرزاد فتم ذلك الزفاف أو قل سوق الفتاة إلى الجزار إلى القبر ولكن شهرزاد كانت

المنقذ لوطنها وخلّصت هذا الوطن من براثن شهريار وعاشت في قصره تدير هذه المملكة وكأنَّ مفاتيحها بين أصابعها تحركها كيف شاءت وكم تمنينا مثل شهر زاد فإن شهرزاد لا توجد إلا على ندرةٍ، أما شهريار فكثيراً ما يوجد فشهرزاد يصدق عليها بيت الحكيم المتنبي:

ولـو أنَّ الـنـسـاءَ كـمـثـل هـذي　　　لفُضِّلَت النساءُ على الرجالِ

٤/ ١٢/ ١٤٢٤ هـ

٢٦/ ١/ ٢٠٠٤ م

الشبح العشرون

إننا نقرأ على حواشي التاريخ قصصاً عجيبة غريبة فيها عِبرة، وعَبرة وأخرى مأساوية فالقصص تمثل تاريخ أمةٍ مرت في هذه الحياة كما يمر الحلم في جفن راءٍ لحظاتٍ ثم ينطوي إلى وراء العدم، ولكن تلك الصورة التي تمثل ذلك الحلم ستبقى لوحةً في ذهن ذلك الرائي تعيش معه فتلاحقه وقد تنمحي من خاطرته وقد تبقى تعايشه حتى ينطوي من هذا الكون فتنطوي مع أحلامهِ وأمانيه، وقد يسجلها في مذكراتٍ ترويها أجيالٌ وأجيال، وما التاريخ إلا قصة رواها لنا مفكروا ذلك العصر الذين عنوا بعصرهم ومجدوا آثارهم، ولولا أولئك الرواة لكان التاريخ موجة من ضبابٍ أو دخانٍ أغرقها ليل عصرٍ فأضاعها فبددها كما يبدد الريح العاتي ورق الشجر، وأريد أن أتحدث على هامش هذا الحديث بقصةٍ من القصص الأسطورية التي تعجبُ من ولعَ بقراءة هذه القصص، وهام بها، فالتاريخ قصةٌ من الحياة، وللقاصين أدوارٌ يمثلونها فصولاً على مسرح التاريخ من دنيا الواقع ومن خيال الأساطير وليست كل قصة أسطورية خالية من تصويرٍ يرمز إلى عِبرة وتجربة ومعاناةٍ مرت بتلك الفصول الأسطورية فلعلنا نأخذ من سماء هذا الخيال تحذيراً ونُذراً لحياتنا الواقعية ومستقبلنا الواعد فكم قصةٍ بنت حياة أُمةٍ وجمعت شتات عائلةٍ كانوا كأيدي سبا كما يقال، فالقصةُ فن من الفنون الرفيعة فهي تشير إلى تاريخ حضارةٍ وعلوم وأفكار أُمةٍ كان لها الشأو العظيم في سالف التاريخ وقصتي هنا التي أريد أن أرسم عناصرها وأبطالها وزمنها وموقعها سأرمز لها بإشاراتٍ ضوئية تكشف ما تهدف لها أهداف هذه القصة فهي قصة من قصص الأساطير التي حفل

تاريخ الأمم بكثيرٍ من ألوان هذه القصص، وكان لها الشوق في قراءتها ولا سيما عند الشباب والشابات لأنهم يعيشون في سماء الخيال ويفرون من واقعهم ليتسلوا بهذه الأساطير فهي المفضلة في الحديث وسمر السُّمار تتكون هذه القصة من امرأة عجوز تسمَّى سُعدة والبطل الثاني يسمى يحيى وهذا الاسم فيه قوةٌ ورمزٌ لإنقاذه ضحايا سُعدة والبطل الثالث معلم سُعدة وهو من مردة الجن وهو من شياطين الجن يدعى مارداً.

الزمن التاريخي زمنٌ مجهول تمثيل هذه القصة على مدن من ضمنها مدينة واق الواق تمتهن هذه العجوز السحر وكيف تعلمت السحر ومن أين بدأت كان أستاذها المارد الجني وهو أحد أبطال القصة جاءها ذات ليلة فقال لها هل أدُلك على صنعةٍ أمان لك من الفقر وكنز ثمين وتَحَكُّم في هذه البشرية فامتلأ قلبها فرحاً وكادت أن تخلق لها جناحان فتطير بهما فقال لها الجني على مهلك وإنما هي دقائق أحملك على ظهري وأعود بك فطار بها الجني حتى جاء بها إلى صحراء ونزل بها على قمة جبل وقال لها هذا الجبل يسمى جبل الصعود وليس فيه نزول فمن صعد عليه لا يستطيع أن ينزل منه فهنا الموت المحتم لأنه يعاني من أمرين إن نزل هوى وتكسرت عظامه وإن بقيَ مات سغباً وعطشاً ثم سار بها قليلا فهتف بها انظري هٰهنا إلى هذه الحشائش فهذه الحشائش فيها روحٌ سحرية تنفث الشر فتسحرِ الشخص إن شئتِ أو المدينة بأسرها فبسحركِ تتحكمين في المدينة أو الشخص فتحولين الشخص إلى حجر صامت أو إلى نصف حجر والنصف الأخر بشر وكذلك المدينة تصورينها على صورٍ غريبة عجيبة تذهل الفكر وتسيّرين أولئك الأشخاص تحت رغبتك بمجرد أن تضربي الشخص بعود من هذه الأعواد فعندما تمسين أحد من الأشخاص وأنتِ تهمسين بكلمة السر وسأودعك إياها ثم مشى بها قليلا وقال لها انظري هذه الحشائش الأخرى فهذه الأعواد ترجع المسحور إلى سيرته الأولى عندما تمسُّ المسحور حينما تهمسين كلمة السر التي تعاكس كلمة السحر ثم اقتلعت كمية من الأعواد السحرية ومن الأعواد التي تبطل السحر ولقَّنها

الكلمتين السريتين اللتين تُسحر الشخص وتبطل السحر فتعيده إلى سيرته الأولى وأوصاها أن يبقى هذا المفتاح سراً لا تطلع عليه أحداً فيفسد السر الذي ينطوي عليه، ووقف هنيهةً وقال لها تقدمي وانزلي من قمة الجبل لأعود بك إلى منزلك ولكنَّ الدرس الذي تلاه عليها أمام عينيها ووعته في قلبها وصمتت هنيهةً ثم قالت أيها المعلم الكريم لا أستطيع النزول ولا البقاء على قمة هذا الجبل إلا إذا قررتَ استغناءك عني وإلقائي في فم التهلكة فذلك لابد منه وهذا الدرس اختبار منه لتعاليمه لهذه العجوز الماكرة ليراها هل أتقنت الفن حتى يتخذها جنديا يسيره لرغباته وأخذ عيداناً وهمهم بكلماتٍ لم تفهمها العجوز لأنه لا يريد أن تعيها وقال لها فلأكن لك مطية كما صعدتُ بك إلى الجبل سأعيدك بسلامٍ وفي ثوانٍ سار ليعود بها إلى مدينتها ومنزلها وقضى معها تلك الليلة حتى الصباح وهو يلقي عليها الدروس الشيطانية ويقوم بتطبيقها وتدريباتها على صعيد الواقع واستمر معها ثلاثة أيامٍ وثلاث ليالٍ وبعد هذا الإنجاز الشيطاني الذي نفث فيه سحره خرج بها إلى مدينةٍ تقع على شواطيء بحر الهند وتسمى واق الواق وهذه المدينة غنية بالرجال والنساء وتغرق في ترف النعمة وترفل في حُللٍ فضفاضة من العيش ووقف بها هنيهةً وطلب منها أن تدوس قلبها وأن لا يكون في جسمها ذرة من إنسانية تسري في كيانها وقال بسم الشيطان إبدأي واسحري أرباب هذه المتاجر ثم نذهب إلى أرباب القصور لنعطل حركة هذه المدينة، ونحولها إلى سكونٍ كسكون المقابر فنستولي عليها ونغتنم خيراتها ونتصرف في مقتنياتها وما فيها من كنوزٍ وقصور فبدأت سُعدة العجوز الماكرة التي تحولت إلى صورة شيطانةٍ ساحرةٍ مهينة نفذت هذه الخطة فإذا بالمتاجر والشوارع أصبحت لا حراك بها إنما هناك صورٌ مسَّنَّدةٌ تفتح عينها بدون منطقٍ أو أخذٍ أو ردٍ ولم تقف هذه الخطة الجهنمية على المتاجر والشوارع بل امتدت إلى قصور المدينة وما فيها ومرافقها وأبقت في كل قصر فتاة نصفها حجر ونصفها بشر تستطيع أن تتكلم وتأخذ وتعطي ولكنها لا تستطيع الحراك أو أن تقوم من محلها فهي في كل صباح

يومٍ من أيام الأسبوع تأتي إلى هذه الصورة وأمثالها فتشبعها إيجاعاً وتضربها مائة سوط كل صباح لتتلذذ وتتكيف بإيجاعها وكلما ضجت من الألم انتشت نشوة النصر فإذا ضجت من البكاء وفاضت من الألم تركتها وذهبت إلى أختها واستمرت على هذه الوتيرة وتتنقل من مدينة لأخرى بعد أن تركها معلمها الجنّ مارد وذهب إلى دنيا بعيدة عنها ومنذ تلك اللحظة لم تره ولم يرها ومن الصدف العمياء أن يصادفها القدر فتحلُّ على سطح سفينة لتاجرٍ ضخم، وكان ذلك التاجر ويسمى يحيى مسافراً في هذه السفينة فجاءت له سُعدة الساحرة فحيته فذهل بهذه العجوز وحار صامتاً برهةً من الزمن ثم سألها كيف نزلتِ عليَّ والسفينة تمخر وسط البحر هل أنتِ جنيَّة أو أنتِ ماذا؟ فقالت له إنني ساحرة وسوف أحوِّل سفينتك إلى أسطورةٍ سحرية لا تتحرك أو أن أطير بك وأترك السفينة لسبيلها فماذا تحب؟ فأجابها ماذا يترتب عليَّ من سحرك لهذه السفينة هل تغرق بمن فيها أم تظل عائمةً لا مرفأ لها تستقر عليه فقالت الساحرة ستغرق سفينتك بمن فيها بعد فترةٍ من كلماتٍ أنفثها، وفضل التاجر أن ينجو بنفسه ويترك سفينته وما فيها من أموال ثمينة لمشيئة الله فوضعته على ظهرها، وطارت به وتركته على قمة جبل الصعود وهنا شرحت له الدرس السحري وتلك الأعواد وكلمة السرِّ التي بها تسحر وبها ترفع السحر على يقينٍ منها أنه لن يستطيع أن يتخلص من هذا المأزق و إلا كيف تودعه هذه الأسرار وتخون معلمها الذي علمها السحر حيث ستتركه على قمة ذلك الجبل وتذهب عنه، ثم تركته وغابت عن المحل بدون أن تودعه أو تخبره فقطع له من تلك الأعواد من الصنفين فأراد أن ينزل من قمة الجبل وإذا بهاتفٍ يهتف به لا تنزل الموتُ.. الموت فعاد يحيى إلى مكانه وأخذ يذرع تلك القمة ليرى مخرجاً فجاء لزاويةٍ أخرى فأراد النزول فإذا بالهاتف يردد الصدى لا تنزل فالموتُ.. الموت وظل على تلك القمة في حيرةٍ واضطراب وعرف أنها مكيدة لقتله ولربما استولت العجوز سُعدة الساحرة على ما تحتويه السفينة من أملاكٍ وأخذ يضرب أخماساً في أسداس ويتوسل لفاطر السماوات

والأرض وإذا بطير ضخم يحط على تلك القمة ويرفرف بجناحيهِ يوحي له أن يمتطي على هذا الظهر فطار به الطير حتى حط به في فضاء المدينة المسحورة لم ير في تلك المدينة إلا صور رجالٍ مسَّمرة متحجَّرة يسلم عليها فلا ترد السلام والمتاجر مفتوحة غير مغلقة فأخذ يتجول في معالم تلك المدينة وهو جائع ظامئ حتى جاء إلى باب قصرٍ فدخل إلى ذلك القصر فلم ير به إنساناً حتى وصل إلى مطبخه فتناول بعض الأكل وشرب وأخذ يتجول في غرفهِ حتى قاده به التجوال إلى غرفةٍ وجد بها فتاة في روعة الجمال إلا أن نصفها نصف حجر ونصف بشر فألقى عليها التحية وسألها عن خبرها فشرحت له قصة تلك العجوز التي حولت تلك المدينة منذ أشهر إلى ما شاهده من هذه المناظر الكئيبة المفزعة والمرَّوعة وهذه العجوز الماكرة تمر بهذه المدينة في كل أسبوع مرة واحدة تتفقد أعمالها الظالمة وتمر علينا فتشعبنا ضرباً وإيلاماً وكلما أشبعتنا ضرباً امتلأت ضحكاً وسروراً وفرحاً فقال لها التاجر في أي وقت تأتي وفي أي ساعة قالت له غداً قبل المساء تدخل غرفتي وتقوم بتعذيبي واحذر إن رأتك فإنها ستسحرك وتحولك إلى ما شاهدته من دُمىً معلقة لا حراك لها والرأي أن تكمن لها وتأتيها من ورائها وتقتلها قبل أن تتحرك ولا تعطيها فرصة تمكنها من الانتصار عليك، قال يحيى التاجر وهل يوجد سيف هنا أو آلةٍ جارحة فتَّش في ذلك القصر فوجد سكيناً تصلح إلى مهمته وفي الوقت المحدد طلعت العجوز الماكرة الساحرة تجتاز بهو القصر، ومنذ أبصرها ووقعت عينه عليها إنها سُعدة التي أرادت قتلي وعطلت حياتي ولكني بمشيئة الله سأنتقم منها وآخذ الثأر لي، ولهذه المدينة المنكوبة، فأخذ يعدُّ الخطة المحكمة ليطلع بها وينفذ اغتيال سُعدة الساحرة فكان يرقبها حتى اجتازت صالات القصر ودخلت إلى غرفة تلك الفتاة لتقوم بتعذيبها فَحَّول يحيى نفسه إلى طيفٍ خفي وظلٍ خفيفٍ لا تسمع له همساً ولا حركة ففاجأها بطعنةِ سكينٍ وهي مسترسلة بتعذيب تلك الفتاة فهوت على وجهها فطلب منها إعادة المدينة ومن فيها إلى سيرتها الأولى و إلا سيقتلها وبعد التهديد وهي لا تستطيع

المقاومة نطقت بكلمات السر فأعادت المدينة كما هي ثم قال يحيى إني لا أأمن مكركِ حيث لا ضمير لكِ ولعلكِ تشفين فتعودين إلى نفث السحر فقتلها.

غير إننا نعيش على قمة عصرٍ لا نؤمن بهذه الأساطير والخرافات، ولكنَّ إنسان عصرنا إن صح هذا التعبير يقتلُ إخوانه ويسطو على قوتهم، والأعجب من أساطير السحر أننا نعيش في القرن الحادي والعشرين قرن الحضارة إلا أنه قرن الانحطاط والانحدار فقد بلغ بالإنسان بأنه لا كرامة له وأن الحيوان أفضل منه، كنا ننتقد العصر الجاهلي العصر المظلم ويا للأسف إننا نعيش في عصرٍ أسوأ من العصر الجاهلي فقتلة الإنسان لأخيه الإنسان لا تساوي درهما أو دجاجة بل الدجاجة أثمن وأغلى في كل يوم نشاهد ونسمع مصارع لإخواننا في فلسطين وفي العراق وفي الجزائر وفي كل بقعةٍ من العالم إلى متى يفيق الإنسان من هذه الغواية المظلمة الوحشية، ويعود إلى رشده ويرجع إلى الدين القويم الذي جعل للإنسان مقاما رفيعاً فالبشر قسمان إما أخوك في الدين وإما أخوك في الإنسانية فأنت مسؤولٌ عن أخيك كما هو مسؤولٌ عنك إن هذه الأحرف أو هذه القصة الخيالية التي صورت أسطورة من الأساطير أردتُ أن أختمها بحقيقة من الحقائق نعيشها في حياتنا وفي كل يوم نشرب كؤوساً من آلامها وأحزانها.

أرجو الله من صميم قلبي أن يرد الإنسان الطائش إلى حقيقة الإنسان وينفض عنه هذا التطرف والغرور وليعود عصرنا عصراً سعيداً ذهبياً.

٢٣/ ٣/ ١٤٢٥ هـ
١٢/ ٠٥/ ٢٠٠٤ م

الشبح
الحادي والعشرون

من غير صدفةٍ ولا ميعاد غير أن ربَّ صدفةٍ خيرٌ من ميعاد للصدف أسرارٌ قد تجمع الغريبين وقد تجمع المتضادين ومن هذه الصدف العجيبة أن تجمع خالداً مع حمدي، وكان خالد ناقماً على المجتمع لا يهدأ خاطره ولا يستريح لما يراه من تبايناتٍ في الأخلاق وتسيبٍ في المجتمع الذي يعيشه، وهو على نقيض حمدي الذي يبصر المجتمع في أطروحته الشكلية الظاهرية ولا يبصر ما فيه من تلونٍ وانحطاطٍ وغدر وكان خالد يخاطب حمدي بعدما تعارفا قبل أن يفتتحا تحاورهما كان يردد خالد :

ولما صار ودُّ الناس خبَّاً   جزيتُ على ابتسامٍ بابتسامِ
وصرتُ أشكُّ فيمن أصطفيه   لعلمي أنه بعضُ الأنامِ

كان يردد خالد هذه المقولة التي صدرت من قلب حكيمٍ درس خلجات المجتمع ويقول إنني أريد أن أفتتح معك يا حمدي التحاور من سماء هذه المقولة وأنطلق من هذا الباب لأتحدث معك وكانا يجلسان على ضفّتي شاطيء البحر وحولهما السفن الذاهبة والآيبة وهدير البحر الذي يزخر بأسرار الحياة، وقد نشأ في الريف، ريف ذوي ضمائر الطهارة غير أنهما تركا ريفهما وجاءا للمدينة ودرسا فيها وتخرجا من جامعتها، والمدينة تضج بألوانٍ من المجتمعات المتلونة والتي تَحْبِك كل فنٍ من المكر والكيدِ، وقد لوثتهما وطبعتهما بما فيها من أخلاقٍ وسواء أكانت فاضلة أو غير فاضلة لقد طبعتهما المدينة بطابعها ولونتهما بعيشها وهما كأنهما لم

يولدا في الريف الطاهر ويدرجا على تربته في تلك الحقول الباسمة بين تلك الأشجار العاطرة والأوراد الزاهرة يشهدان في الليل ضوء القمر الفضي يسبح في النهر وروعة الليل في سمائه ونجومه القبة الخضراء تلألأ بزرقتها وتنعكس على صفحات مياه الجداول الرقراقة يسمعان أغاني الطيور وزقزقة العصافير وترنم الحسُّون مع ضوء الفجر الباكر الذي يملأ الروابي ويسيل ضوءاً مشرقاً على هامةِ عرائس النخيل وتنعشهم النسمات البليلة بالطلِّ والعليلة التي تنعش الأرواح وتحمل على جناحيها عطور البساتين فهم يعيشون في عالمٍ من حبٍ وسلام.

نسيا هذه الحياة وتخلقا بأخلاق المدينة التي يعيشان على صعيدها فبدأ خالد ليفتتح التحاور مع حمدي، وقال خالد أخي حمدي

هل أبدأ تحاوري معك من مقولة شاعر الدنيا (المتنبي) الذي أعطى عن المجتمع صورةً مرعبةً مخيفة إلا أنها تلامس بعض الواقع إن لم نقل تستغرق الواقع إلا ثلةٌ قليلة، ودائماً الخيِّرون هم القلة تصور معي أن الإنسان أصبح يشك أن يصطفي له صديقاً لأنه ابن الأنام فما ظنك بمجتمع هذه صفته وحياته فكيف بمجتمعٍ مزقه الطمع وعاثت فيه يدُ الظَلَمَة وقسمته إلى شرائح وطوائف كلٌ من هذه الطائفة تحاول الإجهاز على تلك. فمجتمعٌ يلبس هذه الصورة ويتأبط هذا الليل إنه لمجتمعٌ يسير إلى الهاوية لأن غنيَّهم لا يعطف على فقيرهم وقويهم لا يرق لضعيفهم وحاكمهم لا يراعي مصالحهم فمجتمعٌ كهذا المجتمع حريٌ بأن ينقرض ويستولي عليه كل غاشمٍ وجائر تبصّر معي في مرآة هذا المجتمع الذي صوّرته لك هل توافقني على نظراتي الضوئية الكاشفة أم لديك تعليقٌ ونقاش في هذه الصورة الواضحة فصمت حمدي هنيهةً ثم أجال فكره وحرك كفه كأنه يشير لشيءٍ مجهول، فقال حمدي إصغ إليَّ يا خالد إنني لم أبصر المجتمع بالصورة التي رسمتها وخططتها في سفرٍ ملونٍ بالزيف والخداع إن المجتمع فيه من لبس صورة الذئب وتقمص روحاً شريرةً تفتك بالمجتمع وفيه الملاك الذي

يذوب في مصلحة المجتمع كما تذوب الشموع وتبدد عتمة الليل وتنير الطريق للأجيال. كما أنني لا أرى ما ارتآه شاعر الدنيا أبو الطيب المتنبي الذي يرسم المجتمع في صورة مخيفة حيث صور كل ابتسامةٍ من أبناء بني الإنسان تنِدُّها شفته ليست ابتسامة حقيقية إنما هي ابتسامةُ خبثٍ لا عن ودٍّ ويغلُ حتى يصل به الهَوَسْ أنه يشك بأن يتخذ له صفياً أو خليلاً لأنه أبن الأنام وكم من شخصٍ من هذا المجتمع ضحى بنفسه في سبيل صديقه، وفي مقاومة الطغاة والظَلَمة فراح ضحيّة، إنني أوافقك على نقطةٍ من نظرتك التشاؤمية التي تدور في المجتمعات البشرية، وهي أن المجتمع يقدس الأحيل لا الأنقى يقدس القوي ويحتقر الضعيف ويخضع خضوع الذليل للطاغية قد تفهم يا خالد من مقولتي أنني تناقضت وأنا في تحليلاتي ونظراتي في هذا المجتمع لم أتباين في الرأي ولم أبدِّل نظرتي بنظرةٍ متناقضةٍ متهافتةٍ حيث إني قسمت المجتمع إلى مجتمع شريف طاهر كالملاك وقسم إلى شيطان مارد وهذه الظاهرة لعلها كانت غريزةً في البشرية منذ فتح الإنسان الأول عينه على هذا الكوكب، فقصة ابني آدم هي صدقٌ على ما أرتأيه، فماذا تقول يا خالد في هذه النظرة التحليلية الموجزة؟
تحرك خالد ليرد على حمدي بعد أن رفع رأسه كأنه يقرأ حروفاً من كتاب الكون وأسرار الحياة فبدأ مقولته: أخي حمدي لعلك لم تستوعب مقولتي في نظراتي الضوئية الكاشفة التي رسمت هذا المجتمع وإن كانت هذه الرسمة من وراء منظار تشاؤمي إلا أنني لم تستغرق هذه النظرة المجتمع بأسره واستثنيت منه القلة القليلة وهم يعدون، ودائماً الخيِّرون قليلون لا تخدعك الكثرة الكاثرة لأنها تنعق مع كل ناعق وتميل مع كل ريحٍ، والمجتمع قد تجنّى عليه أغنياؤه وحكامه وقد يجني عليه المجرمون الذين يتمردون على الأخلاق وعلى الدين فالمجتمعات لو كانت صالحة وكلها فاضلة كملائكةٍ في الطهر والصفاء لما احتاج المجتمع إلى مصلحين ومرشدين بل لم يؤثر في أعماق حياتهم المصلحون ولولا رحمة الله وفضله الذي هو لطفٌ منه حيث تفضَّل على هذه البشرية فبعث فيهم الأنبياء

والرسل ليخرجونهم من الظلمات إلى النور، ويصلحوا ما فسد من معوجِّهم إلا أن هذه البشرية لوت عنقها وصدت بقلبها وبصرها عن تعاليم الأنبياء والرسل وظل يرسف بقيود الضلالة والظُلم ويعيش في وهدةٍ موبؤةٍ لم يتذوق تلك التعاليم ولم يهدمها فيا ويلي من الإنسان وويلي عليه فماذا جوابك يا حمدي؟!.

سكت حمدي هنيهةً ثم أخذ يجمع أفكاره كما يجمع مفكرٌ خيوطاً يلملمها من ضوء الفجر أو لوحة يخطط لرسمها، فبدأ مقولته قائلاً إنني رسمت نظرتي الضوئية حسب مرآتي في هذا المجتمع وصورته لك في رسم خطوطٍ واضحة المعالم، وأريد هنا أن أشخص لك الداء وأقول لك إن المجتمع البشري تغلب عليه الكثرة الكاثرة وهي البُهمُ التي تقاد بلا تفكيرٍ والدليل على ما أقوله من برهان أضربه لك مثلاً حيَّاً حيث إن هذه الشريحة تشبه قصة المفكر الذي كان يمتطي باخرةً وجاء لبياع ضأنٍ ليبتاع منه خروفاً فرفع عليه السعر وتحكم في الثمن وكلما أراد أن يزحزحه عن ذلك المبلغ يصر ذلك البياع على ذلك المبلغ لأنه يراها فرصة له ليتحكم ولكن ذلك المفكر أراد أن يؤدب ذلك الجشع فاشترى منه الخروف بما فرض عليه من مبلغٍ عليه وأخذ ذلك الخروف وجاء به أمام تلك الخرفان ليدخله من فتحة السفِينة ليلقيه في البحر أمام تلك الخرفان ولم يدر في خَلد ذلك البياع هذه الفكرة وكانت خرفانه تقف أمام تلك الفتحة وحينما رأت الخرفان أخوهم ينزلق إلى البحر تبعوه واحداً إثر واحد فلم يبق لديه ولا خروف واحد فولول وهاج وماج وقال له المشتري أنا لم أفعل شيئا غير أن الخروف الذي اشتريته ألقيته في البحر وأنا حرٌ في تصرفي، فلماذا لم تمسك خرفانك أن لا يتهافتوا ولكني أقول لك ما أصابك من خسارةٍ فهي نتيجة الجشع والطمع. بهذه المقولة أختم نظرتي التحاورية معك لعلك تلمس في خطوطها عبرةً ودرساً لهذه الحياة وهذا المجتمع.

فأجابه خالد بعد أن قرأ أسارير خطوط وجهه التي ترتسم فيها مواكب

الأيام والليالي لتسير به من دور الشباب إلى الكهولة إلى دور الشيخوخة إلى الشيخوخة الواهنة إلى المصير الأخير إلى القبر إلى المرجع الأعلى الذي لا حول ولا قوة إلا به.

وقال يا حمدي أعرني سمعك فأنا وأنت قد شخصنا داء المجتمع ولمسناه بيدٍ وحددنا أين يكمن وإن اختلفت النظرة في المجتمع ككل ولكني وإياك التقينا على نقطة واحدة أن كوليرا المجتمع الذي تفتك به هي من ظُلاَّم المجتمع من أغنيائه وملاَّك أمره، فإذا لا خلاف بيني وبينك ولا افتراق وقبل أن أختتم نظرتي التحاورية معك أسألك هل وجدنا الطبيب الذي يشفي داء هذا المجتمع ويعيد له عافيته ويطهره من هذه الأمراض ليقوم سليماً فلعل جوابك لي وأنا أشاركك في هذا الجواب.

طلبتَ معسورةً فايئس من الظفرِ

٠٧/٠٧/١٤٢٥ هـ
٢٣/٠٨/٢٠٠٤ م

الشبح
الثاني والعشرون

لقد دار بين سليمان وابنه داؤود تحاور في جلسةٍ عائليةٍ تنظمها البساطة، وتنحسر عنها الفوارق الأبوية وكأن سليمان صديق لداود ولم يكن هناك حاجزٌ بينهما أو قيودٌ تقيد الابن وتحجزه في حرية رأيه فبدأ والده يتأفف ويتضجر من بني البشر وقال لابنه إن هناك ظاهرة اجتماعية تلبَّس بها المجتمع وارتاح إليها وهي أخطر شيء على هذا المجتمع المسمى بالمجتمع الجديد حيث إن المجتمع بدأ يفكك الروابط الأُسرية وبكلمة أصرح يمزقها كما تنثر الريح أوراق الشجر فالزيارات قد اختفت من بين العوائل وقد لا يرى الوالد والده أو الأخ أخاه إلا في مناسباتٍ، وقد تكون المناسبات على ندرةٍ فهذه الظاهرة الاجتماعية تصيب المجتمع بانحلال أسره لأن المجتمع يتكون من أسر والأسر تتكون من أفراد، والذي هو أدهى وأمرُّ وما يقلقني ويقلق كل أب وأم، الظاهرة هي دور العجزة ألا قاتل الله دور العجزة، إن دور العجزة هي الموت البطيء القاتل بلا سلاح وما نشاهده اليوم في معاملة الأبناء مع آبائهم حينما يصل الوالد إلى الشيخوخة الواهنة المجهدة التي تكدست خلف خطاها السنون الثقيلة الطويلة وأعباؤها الثقيلة، حيث أبهظت كاهله وأقعدت به ملقاً على سريره يحتاج إلى ظل الرحمة والعطف تظلله، وتحني عليه، إلى يدٍ ملائكيةٍ تُربِّتُ عليه وتسليه لتنسيه، أو لعلها تخفف من بعض هذه الويلاتِ ولكنَّ الظاهرة الاجتماعية التي تفشت وظهرت على أفق هذه الحياة وتنفّست الأبناء في جو دور العجزة ونسوا تربية ذلك الأب أو الأم وما قاساه ذلك الوالد

الحنون وتلك الأم التي كان حجرها ملجأ لذلك الابن وصدرها كنزاً ودفئاً وحناناً يعطفان ويربيان ذلك الطفل ويخشيان عليه من ذرات الهواء ومن لعثات الكر ومن حرارة الصيف، كل ذلك نسيه الابن، ونسي ذلك الحجر الذي طالما ضمه، وذلك الصدر الذي أعتنقه وألقى عليه بروداً من الحب.. الحب الطاهر الذي يتدفق بلا منَّةٍ وبلا إذلالٍ بل حبٌ نبعُ عاطفةٍ لا تريد مقابلاً، أو أجراً على ذلك، نسيَّ ذلك الابن ذلك الينبوع وذلك الظل الوارف عندما مرض أحد أبويه وصار مقعداً، وكأنها فرصة الخلاص ليلقي به في دار العجزة ويتركه رهن هواجس تجيش في نفسه وتسرع به إلى القبر حيث أخذ الأب يضرب أخماساً في أسداس، إنني ربيت هذا الابن أو هؤلاء الأبناء صغاراً وبذلت لهم قلبي وفرشته في دروبهم وسقيتهم من الحنان كؤوساً وكل أمالي أن يكونوا ذخراً ليوم عجزي اتكأُ عليهم اتكاء شابٍ يحب الحياة لا شيخاً هرماً يصارع الموت ليس لديه من يخفف آلامه، أو يسليه أتمنى لو كنت على سريرٍ في بيتي، ويحيط بي أبنائي، وأتزود نظرةً منهم قبل الرحيل قبل أن أغمض جفنيَّ عن هذه الحياة ولكن ولعنة الله على لكن إنها التربية التي أضاعوها وداسوها تحت أقدامهم فيا أسفي ولهفتي على هؤلاء الأبناء العاقين الذين لم يفهموا معنى الحياة، ولم يعرفوا معنى الأبوة والأمومة، وأنها من نعمة الله عليهم.

هل تعرِف يا أبني يا داوُد أن كتاب الله العزيز المنزل قد أوصى الأبناء ببر الوالدين، ورعايتهما في عدة توصيات في آياتٍ بينات ولم يوصِ الأب إلا في ناحية واحدة وهي قضية الميراث لأن بعض الآباء يجحفون على البنات فيحرمونهم من ذلك الميراث، ويبرون الأبناء أو ينقصون منهنَّ ما أوصى به الله للذكر مثل حظ الأُنثيين، فإن بعض الآباء لا تظلم بناتها إلا في هذه الناحية. ناحية الإرث، وهذه جاءت ميراثاً من الجاهلية ولازالت تتمشى في دم البشر لأن المرأة لم يعاملوها كما عاملها الإسلام كأمٍ وأخت وزوجة بل هي الرئة التي يتنفس منها المجتمع، فلا يصلح رجل بلاً امرأة، ولا امرأة بلا رجل، وكلٌ منهما مكمِّلٌ للثاني، هذا ناموس

الحياة وسنة الله التي فطر عليها عباده، فهل عندك تعليق يا داوُد على هذه النظرات التي صورتها ورسمتها أمام عينيك.

قال داوُد بأدبٍ واحترامٍ هل تسمح لي يا أبي أن أعلق على نظراتك الضوئية التي تصور واقعنا المرير، أنا لا أخالفك في المحور الأساسي وفي منهج البنوة مع الأبوة وفي حقوقهما المفروضة على الأبناء كثيرٌ هم العاقون لآبائهم أما المقصرون فلا تستطيع عدَّهم والبارون أقل من القليل، وما أصدق مقولة أبي الطيب المتنبي حينما قال :

إنما أنت والدٌ والأب القاطعُ أحنى من واصل الأولادِ

إنه تصويرٌ رائعٌ الولد الواصل لا يصل في حنانه وعطفه إلى حنان الوالد القاطع فكيف بالوالد الواصل الحاني إنما أريد أن أصور وأرسم خطاً من خطوط الأبناء الذين وفقهم الله وهم على ندرة وبرُّوا آباءهم وحنوا عليهم ولم يسارعوا بهم إلى دنيا الموت البطيء إلى دار العجزة، فإنها دارٌ تسرع بالآباء إلى قبورهم، وأنا معك يا أبي في هذه النظرة التي تصور عصرنا. العصر الجديد. عصر المدنية، وآمل من الله ألاَّ أكون من هؤلاء الأبناء العاقِّين، وإذا كان الشيطان سيزين لي هذه الطريقة فأسأل الله أن يختارني قبل أن أصل إلى هذا المنحدر. المنحدر الواطيء والبؤرة الفاسدة، واسمح لي يا أبي لعلي تجرأتُ وتحدثت معك بأسلوبٍ قد لا يجوز فيه مخاطبة الآباء فصمت داوُد وأخذ سليمان يتحدث قائلاً أيها الابن العزيز أنا لستُ من الآباء الدكتاتوريين الذين يفرضون دكتاتوريتهم على أبنائهم ويأخذ بكتم أنفاسهم، ولا يفتح لهم صفحةً من حياة الأبوة ليتحدثوا مع آبائهم ويدلوا بآرائهم، وإنك يا أبني لم تخرج عن إطار الأدب وسمتِ الطريق المستقيم، فأودُّ يا داوُد أن أكمل لك نظرتي حول هذه الدور التي سميت في عصرنا بدور العجزة أي قبور الآباء والأمهات التي طبَّلَ لها المتشدقون وضرب لها الدفوف بعض المفكرين في الصحف والإعلام حتى صوروها كأنها جنةٌ يرتاح فيها الشيخ المتعب الذي أنهكته الحياة، ونخله

الزمان فأمسى مقعداً لا حول له ولا قوة يحتاج إلى رعايةٍ من كفٍّ حنونةٍ، ومن قلبٍ خافقٍ كظل وأرف يغطي ذلك الشيخ بعطفه وحنانه. أيها الابن العزيز إن الأب حينما يشعر بأن ابنه يريد التخلص منه ليقذفه كمتاعٍ بالٍ إلى دار العجزة يحس بأن لا قيمة له عند أبنائه وأنه يشبه المتاع البالي الذي يريد ربُّ البيت أن يتخلص منه فيلقيه في سلة المهملات ليجيء عمال البلدية فيأخذونه إلى محرقة القمامات إنه يفكر بهذا التفكير، وتتراقص أمام عينيه أشباح الليل المظلمة، وتتزاحم عليه هواجس التخلص منه، ويرى أنه أصبح غير مرغوب فيه حتى من كان يكدح ويذوب ويحترق كما تحترق الشموع في إسعاد هؤلاء الأبناء ولو كلفته الحياة حياته في سبيل إطعام تلك الأبناء، لا يفكر إلا في إطعامهم وإسعادهم وتربيتهم وتوجيههم، وما ظنك عندما يلقى به في تلك الدار ولا يزوره الأبناء إلا حين يهاتفون بالهاتف عن موته فيأتون لأخذه جثةً هامدة لم يرهم منذ دخل هذه الدار، ولم يروه، فهو محرومٌ ليس من العطف فقط ومن الحنان حتى من رؤية أبنائه الذين هم عليه أعز من نفسه هكذا انحدرنا وهبطنا إلى هذا المستوى المظلم، وقبل أن أختم هذا التحاور معك يا أبني أقص عليك قصتين واقعيتين، وأغلف أبطالهما في حروفٍ مكنونةٍ لا يكشف الستار عنهما لكي لا ينزعج أهليهما، واحدة منهما شهدتُ وقائعها رؤيةً متجسدةً أمام عينيَّ، والأخرى رواها لي من شاهد ظلالها الواقعية تتجسد أمام بصره وإن فصول القصة الأولى:

كان والدٌ لديه أبناءٌ وبنات كلهم يعملن ويتقاضون رواتبَ، وهذا الأب قد احترق في سبيل أبنائه وذاب كما تذوب الشموع في الظلام الدامس، وباع ما يملكه من بساتين وعقارات لينفقها على هؤلاء الأبناء ويسد ما يحتاجونه من شؤون حياتهم وتكاليفها وتعاليمهم وتأديبهم، وعندما وصل إلى حياة الشيخوخة الهرمة وأثقلته الحياة بقيودها ورمت به على سريرٍ لا حراك له، ولا طاقة له بصراع الحياة، فهو يصارع الموت وبعبارة أدق صراعٌ بين الموت والحياة وقد قال عندما طلبت منه أن يذهب إلى

المستشفى على أثر وعكةٍ ألمت به فزادت الطين بلة قال إني أرفض الخروج من بيتي لأي مصحٍ ولو لمراجعة، فقلتُ له لماذا هذا الامتناع، فأجابني أن هناك سراً دقيقاً يحزُّ في نفسي ويقطع أحشائي وهو أمضُّ عليَّ من الموت، وبعد أن غالبته المغالبة الطويلة التي كان فيها صبر طويل كشف لي السر قال إن أبنائي يهددوني وبتعبير أصح يطلبون مني أن يلقوني كما يلقى المتاع في دار العجزة، ولذلك أخشى أن يكون ذهابي إلى أحد المصحات حيلةً تُغلَّفْ، وطريقاً تسلك بي إلى دار العجزة.. دار الموت، وأنا أفضل الموت في بيتي، لأتمتع بنظرةٍ من هؤلاء الأبناء أو من زوجي، لذلك أغالب الأمراض وأصارعها، فقدرت له هذا الموقف النبيل الذي نأى وترفع على هذه الدناءات غير الوفية وغير المشكورة، والتي يمقتها خالقنا.

أما فصول القصة الثانية :

فقد حكى لي من شاهدها وعايشها في رؤية واقعية وهذا الفصل من القصة يتمثل مع أبنٍ وأمه، وهذه الأم قد أنهكها المرض وأكلتها الشيخوخة وكدتها السنون ولكنَّ إبنها لم يلقها في دار العجزة، ولكن خاتمة الفصل والنقطة التي يلتقي عليها الأبناء التخلص من الآباء والأمهات فألقى بها عند إحدى بناتها وهذه البنت تعيش تحت زوجٍ لا يقاس بموازين الشرعية والمعنوية بابنها التي هي واجبٌ عليه قد فرضه الشرع في كتابه المنزل على حبيبه وسنة رسوله (صلى الله عليه وآله وسلم) فألقى بها عند تلك البنت، وعندما طال الأمد على سكناها عند بنتها ضاق بها ذرعا زوج بنتها، وحملها في سيارته وأعادها إلى بيت ابنها، وحينما وصل ابنها إلى بيته وفتح عينه فرأى تلك الوالدة الحنونة شبحاً ممدداً أو مومياء ملقاة على فراشها برق وأرعد وزمجر وضاق ذرعاً وكأن البيت لم يسع ذلك الشبح الممد فلم يطب له قرارٌ ولا مقامٌ حتى أخذ أمه وأرجعها إلى بيت بنتها ولما لم يستقبلوها ولم يفتحوا البوابة لأخذها ألقاها على سلم مدخل البوابة الرئيسية التي بالشارع، وذهب عنها كما تلقي القمامة من بيتك في سلة

المهملات. تصور معي هذا المنظر الذي يرعب النفس ويجسد القسوة لا بل يجسد الوحشية التي تفترس النفس البشرية، فبعد هذا المنظر الذي يتمثل لك شريطاً سينمائياً كأنك تشاهده، هل يبقى أملٌ لأمٍ أو لأبٍ في هذه الحياة إنما يمتلئ قلباهما حسراتٍ تقطّع القلب وويلاتٍ تمزقه أشلاءً كما يمزق العاصف أفنان الشجر فلا ترى لذلك الشجر الأخضر أثراً بعد عين، أهكذا تنحدر بنا الحياة؟ أهكذا نعيش في عصرٍ ندَّعي فيه الحضارة والمدنية؟ أهكذا ندَّعي أننا مسلمون وبين أيدينا كتاب الله نقرأه صباحاً ومساءً وهو ينادي ويصرخ ببر الوالدين حتى قرنهما باسمه لأنه خالق البشرية لعلمه بما ينحدر إليه هذا البشر من خُلُقٍ سافل وحياةٍ واطئة تشبه الحمأة الدنيئة.

هذه قصةٌ أو فصلٌ من كتاب عصرنا الجديد الواقعي، عصر المدنية عصر الحضارة، عصر الكهرباء، عصر الحاسوب معجزة القرن العشرين والقرن الحادي والعشرين.

١٥/٠٧/١٤٢٥ هـ
١٣/٠٨/٢٠٠٤ م

الشبح
الثالث والعشرون

إنَّ ريفاً من أرياف القرية الذي يتمتع بالشجر الوافر وتدفق المياه وطهارة الحياة حيث إن أهله يأكلون ويشربون من عرق جبينهم يكدحون بالنهار ويتعرضون إلى لهيب الشمس وفي الليل خلال ساعات الراحة، وبرغم هذا وذاك كانت لفتياتهم سهرات يعقدنها في برحة الفريق وهي الفسحة التي تقع بين بيوتهم يجتمعنَ تحت ضوء القمر وفوق الرمال الناعمة يتحدثنَ عن قصص الماضي وعن البطولات وعن الحب وعن النخلةِ وعن زراعة ريفهم، وفي إحدى السهرات تردد حوار بين هندٍ وزينب ورباب وكان هذا الحوار أدرنه حول أثمن كنزٍ في الحياة، وهو حضن الأم. فبدأت هند إنني برغم ما أتحمله من مسؤوليات ومتاعب أحِنُ إلى حجر أمي ألا تتصورنَّ يا زينب ويا رباب كيف المتعة واللذةِ التي نجنيها من حضن الأم والراحة والطمأنينة. إنني لا أرى لذةً كمثل هذا الينبوع الذي يتدفق حناناً ورحمةً كنتُ ذات ليلة وأنا في العاشرة من عمري جئتُ إلى حجر أمي واسترحتُ إليه كما يستريح العطشان إلى الماء العذب ومنذ أحسستُ بهذا الدفء والحنان نهب عيناي الكرى وغفوتُ في حجرها حتى داعب الصباح جفون الشجر وغرَّد البلبل ألحانه العذبة لم توقظني أمي ولم تتحرك لتعكر عليَّ هذا الصفاء وبقيت مستندة للحائط على هيئتها حتى استيقظت من هذا الحلم اللذيذ وقلتُ لوالدتي أماه لقد أتعبتك وكنتُ ظلاً ثقيلاً أو كابوساً جثم عليك فأحرمك النوم ففتحت عينيها وقبلتني وقالت إنني سعيدة يا بنيتي بهذه اللحظات وهي تحاول أن تفتح جفنيها حيث إن أصابع السهر تكاد

تطبق عينيها وبقيت أثارها تلوح على وجهها وتنعكس على جسمها ولكنها سرعان ما قامت بكل سرور ونشاط لتعمل لي وجبة الإفطار، ثم قالت لزينب ورباب هل عندكما حكاية ترويانها لنقطع بها هذه السهرة، وهذه السهرة نريد أن نقطعها عن حياة الأم فكلما تردد أسم الأم على سمعي انتشيت وانتعشتُ كما ينتعش ثغر الزهور عند تساقط الطل عليه، أو كما ينتعش العليل بنفحات النسيم العليل. قالت زينب إنَّ حياة الأم هي كنزٌ لا يقدر بثمنٍ أو لا يعدله شيءٌ في هذه الدنيا وماذا أقول لكما في عطاءٍ يتدفق بسخاءٍ بدون مِنَّةٍ إذا كانت الحياة عطاؤها بمنَّةٍ فإن عطاء الأم عطاءٌ لا منَّة فيه بل إن الأم تفني حياتها وتتمنى موتها إذا كان الموت في إسعاد أبنائها لأنها تبصر كبدها تسير على الأرض فلو هبَّت الريح عليها لامتنعت عينها عن الغمض وبقيت تسامر النجوم وتحسب الساعات في قلقٍ واضطراب كالريشة في مهبِّ الريح العاصف، وأنا بدوري سأروي لكم قصةً وقعت لي مع أمي العزيزة وأصور لكما فصولها الواقعية في سهرتنا الآتية.

كنتُ البارحة أوعدتكما أن نقطع ليلتنا التالية لقصة وقعت لي مع أمي وبدأت زينب تقص قصتها كنتُ في العام السادس فخرجت مع أترابي لنلهوا في بعض الحقول المجاورة إلا أن أترابي ذهبنَ عني وتركنني في ذلك الحقل حتى ودعت الشمس يومها وسكبت أطياف حمرتها على عرائس النخيل، وبدأت أشباح الليل تسري رويداً رويداً حتى غطت الشجر والجداول والأكواخ والمستنقعات والسهول والمرتفعات فلم أستطع أن أهتدي إلى بيتي وانكمشتُ بين شجرتين من شجر اللوز وغطتني خيفةٌ تحدق بي كأنها أشباحُ جنٍّ تكاد تلتهمني وفزعت أمي وأمست بلا شعور وبلا قلب وجندَّت أبي وأخوتي وعائلتنا للبحث عني حول العيون التي تنبع من جوف الأرض وتسير في قريتنا ليلاً ونهاراً دون توقف لسقي الحقول على منهجية دقيقة خشيت أمي أنها ابتلعتني واحدة من تلك العيون لأنني لا أحسنُ العوم فعاشوا تلك الليلة على قلقٍ وفزعٍ وهم يسبرون العيون والحقول، وكانت من الصدف المفاجأة أن تسير والدتي وهي تهتف باسمي في أخر هزيعٍ من

الليل فسرى صوتها على أجنحة السكون وهدأة العيون فلا يجرح صمت ذلك السكون إلا صدى صوتها وحفيف النُسيماتِ التي تهز غصون الشجر فحمل ذلك النسيم على أجنحته أصداء ذلك الصوت الحبيب فرددتُ صداه وكلما هتفت أمي رددت الصدى ولكنها لم تهتد لي ولم أهتد لها إلا بعد أن فتح الفجر عينيه وداعب الأفق بضوئه وبدأ يسيل كالفضة على عرائس النخيل والأشجار وقد أقترب صدى صوت أمي مني حتى كاد أن يصل إليَّ فهتفتُ بها فدلها صوتي على مكاني وعندما التقت بي أخذتني إلى صدرها وعانقتني وأمطرتني من القبل وهي لا تكاد تشعر أنها تعيش في دنياها حيث أخذها الفرح والدموع حتى لم تكد أن تصدق أن أبنتها على صدرها وأنا لا أذكر من ملامح هذه القصة إلا بصيصاً من فصولها، إنما أمي روت لي فصولها وكيف عاشت تعاني حرارتها وتتجرع صابها أرأيتما يا هند ورباب كيف الأم تشقى بأبنائها وتسعد بسعادتهم هذه قصتي مع أمي فأنا أطلب من رباب أن تقطع ليلتنا بما حدث لها في تاريخها من قصةٍ نادرة مع أمها فإن الأم هي الحياة فإذا تحدثنا عن الأم تحدثنا عن مدرسة الحياة إذ هي نفس الحياة فبدأت رباب تؤيد ما قالتاه هند وزينب عن حياة الأم وكيف معاناتها منذ الحمل حتى أخر لحظةٍ من تربيته وتوجيهه ثم أنشدت :

الأم مــدرســـة إذا أعــددتــهــا أعـددتَ شـعـبـاً طـيـبَ الأعـراقِ

فالأم هي المدرسة التي تنشئ أبناءها على الفضيلة إذ كانت الأم لديها كنزٌ من الخلُق الرفيع ومن الثقافة الإسلامية وإلا فهي قبرٌ لأبنائها إلا من مدَّهُ الله بأضواءٍ من الهدى فيتمرد على تلك الحياة المظلمة سواء أكانت من أبيه أو أمهِ إذاً فالثقافة الإسلامية هي ضوءٌ يضيء مدّلهمات الحياة سواء تشعل ذاك الضوء من الأب أو الأم والذي أريد أن أتحدث عنه هنا ونقطع به سهرتنا في هذه الليلة ما جرى لي من قصةٍ تصور وتجسد عواطف الأم ففي إحدى ليالي الصيف كنتُ نائمةً في عريش بيتنا في هذه القرية الحالمة فأُصبتُ بحمى التيفوئيد وهذه الحمى تكثر في الأرياف فشعرتُ بألمٍ مُضنٍ في جسدي

حتى صرتُ لا قوةَ لي على الحراك لأقوم فأنزل من العريش إلى الدور السفلي فتفقدت والدتي أبناءها ولتهيئهم للكتاتيب فلم ترني بينهم فاستغربت وأخذها طيفٌ من الوساوس فأخذت تهتف باسمي وأنا لا أستطيع أن أرد عليها، وأخذت تضرب أخماساً في أسداسٍ ولم يمهلها قلبها حتى أسرعت إلى سريري، وقد أشرقت الشمس وغطتني بأشعتها فزادتني عرقاً على عرق فحرارة الشمس وحرارة الحمى يتعاونان على جسمي المهدود الضعيف لا يوجد في قريتنا كهرباء أو مصح يلجأ إليه العليل ولا هاتف، نفقد جميع الوسائل العصرية فماذا تصنع والدتي بي؟ فهتفت بإخواني وجاؤوا فساعدوها على حملي وإنزالي إلى الدور السفلي، غير أن حمى التيفوئيد ارتفعت حرارتها وأفقدتني شعوري وسرتُ لا أعي ولا أشعر بمن حولي، فاحتارت أمي ماذا تصنع غير أنها حانت منها لحظةٌ من لحظاتِ التصرف الحسن الذي يشبه الإلهام أو الطبيب فدعت بإناءٍ من إحدى (السيبان) بعض العيون الباردة وهي كثيرة في قريتنا فصارت تضع فيها مناشفَ وتلفح بها رأسي وجسمي بذاك الماء البارد وعملت لي بعض العقاقير وأخذت أمي في تمريضي تعاني الأمَّرينِ حرارة الصيف والذي هو أحر من الصيف حرارة الحمى، وهلعها عليَّ وتسهر معي طول الليل لا تفارق سريري وتطببني بالطب البدائي وبعد عشرة أيامٍ أفقت من غيبوبتي ونُقِلتُ إلى مصحٍ يوجد في المدينة إذ لا يوجد مصح غيرِه في ذلك الوقت وأصرّت أمي علَى البقاء في ذلك المصح لا تفارقني طيلة الزمن الذي قضيته في ذلك المصح الذي أستغرق قرابة شهرٍ حتى تماثلتُ للشفاء وعدتُ إلى بيتنا. إن قلب الأم يذوب في سبيل أبنائها كما تذوب الأضواءُ، أو الشموع لتضيءَ لغيرها وكانت خاتمة هذه القصة نجاحاً لي وامتحاناً في معاملتي مع أمي وأبي، فأخذتُ من هذه المعاناة التجريبية درساً بليغاً أطبقه فصلاً بعد فصل في حياتي التعاملية مع الوالدين، وختاماً أرجو لكما ليلاً هادئاً وصباحاً سعيداً.

١٤٢٥/٠٨/٠٥ هـ

٢٠٠٤/٠٩/١٩ م.

الشبح
الرابع والعشرون

ليس اليتيمُ من انتهى أبواهُ من هـم الحياةِ وخلفّاهُ ذليلا
إن اليتيم هو الذي تلقى له أُماً تخلَّتْ أو أباً مشغولا

هذه مقولةٌ لأمير الشعراء أحمد شوقي يصور فيها حياة اليتيم ولكنَّ الشاعر يقسِّم اليتيم إلى يتيمين: اليتيم الذي مات عنه أبواه ولبسَ جلباب الفناء، واستراح من هموم الحياة وأعبائها فهذا اليتيمُ الذي يعرفه المجتمع ويتأسى له وأما اليتيم الذي أشار له الشاعر في بيته الثاني فيتراءى لي أنَّ يتمه أفظع من اليتيم الأول لأن اليتم الذي أُصيب بفقد والديه عاش في الحياة لا كفيل ولا مُعين له إلا الله ولذا قال الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله ((أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة وأشار بإصبعيه السبابة والوسطى)) ما أعظمها من مقولةٍ تُصورُ الضمان الاجتماعي في حرفٍ ضوئيٍ ينير عتمة الحياة ويرشد إلى سعادة الدنيا والآخرة والانتفاع بخيرهما. أراد نبي الرحمة ﷺ من هذا الحرف الضوئي أن لا يضيع يتيمٌ فيهمل في هذا المجتمع الهائج كأمواج البحر فتبتلعه أمواجه إذ لا راعي له لذلك نصَّ الرسول الأعظم ﷺ على رعايته وأعطى أثمن أجرٍ على هذه الرعاية ولم يهمل الرعاية بل جعل لها قدراً عظيماً وأجراً ثميناً. فما ضاع يتيمٌ وقد يكون اليتيمُ بعد أن يتخطى حياة اليتم عبقرياً يضيءُ في أفق وطنه أو زعيماً يقود وطنه في سبيل الخير، أما اليتيم الذي أشار له الشاعر في البيت الثاني فهو اليتيم الذي يرثى له كل الرثاء حيث لا راعي ولا كفيلَ له لأن أبويه

يعيشان على قيد الحياة ويتنفسان في جوها ويتمتعان بخيراتها ولكنه يتيمٌ في صورةٍ مُرَّةٍ يرثى لها ويُحزنُ عليه لأنَّ والدته شغلتها صور أعمال الحياة ومغرياتها وأبوه يكدح في أطماع الدنيا وزخرفها وليس لديه فضلةٌ من وقتٍ يرعى فيها ذلك الابن ويرشده ويذيقهُ كأس الحنان ونبع العطف يجيءُ ذلك الوالد من كد الحياة يلهث ليلقي بنفسه على سريره وعندما يفتح الفجر أجفانه يحسب أخماساً في أسداس ليعود الكرة في ميدان الحياة اللاهث الذي لا يشبع منه فهو نهِمٌ لأن الحياة هي كالبحر كلما شرب منها زادته ظمأً، وهذه التوطئة سأدخل منها إلى صورة قصةٍ أروي فصولها فصلاً.. فصلاً وهذه القصة بطلاها أُمٌ ويتيمةٌ واليتم كأسٌ مسبرةٌ مُرَّةُ المذاق في هذه الحياة. ما أذل اليتيم وهو يتطلع لمن يكفله وقد حجب والده بمشيئة الله عنه وراء الصفاح، لقد تركه والده يصارع الحياة لو لا ظلالٌ من رحمة الله ترعاهُ وتكفله فكيف إذا حل اليتم بطفلةٍ صغيرةٍ لا مال لها ولا أخ ليس لها إلا أُمٌ بائسةٌ تضحّي بنفسها في سبيل إسعاد هذه الطفلة اليتيمة ولِدَتْ أسماء في فترةٍ من فترات الزمن وكانت أمها تسمى هنداً لم تفتح هذه اليتيمة الطفلة أجفانها لترى حنان الأب ويداعبها والدها ببسماتٍ عاطفية ويسكب عليها ما في الأبوةِ من رعايةٍ وعطف، ما كادت أسماء تبلغ السنة الواحدة من عمرها حتى مات والدها وتركها مع أُمٍ لا تملك من هذه الأرض شبراً أومن حطام الدنيا قرشاً واحداً هنا الأم الحنونة استولى على مشاعرها الفزع والحزن لا لنفسها ولكنَّ هذا الفزع الذي أثار مشاعرها من أجل هذه اليتيمة الصغيرة التي تدرج بين يديها وتنام في حجرها، فأخذت هند تضرب أخماساً في أسداسٍ وكأنها تبحث عن شيء ثمين فقِدَ منها في خضَّم بحرٍ لا تكاد أن تصل إليه وما أكثر الذين يصابون بفقد آبائهم فيظلون في لاهبٍ من ميدان هذه الحياة، قد يكونون من السعداء ويعيشون حتى آخر لحظةٍ من حياتهم وقد يعيش بعضهم في شقاءٍ مبرّحٍ مضنٍ، وهذه إبتلاءة من خالقنا ليختبر عبيده ليكافئهم على صبرهم ويعوضهم عن فقد والدهم إن هذه الحكمة الإلهية هي منبع الرحمة، منبع الخير لبني الإنسان ولكنَّ الإنسان لا

ينظر بمنظارٍ ضوئي يبصر به سبيل الخير من سبيل الشر فيظل في حياةٍ عابثةٍ متبرماً إذا لم يحالفه النجاح، لقد كانت هذه الجمل اعتراضية أو بعبارة أدق توضيحية فلنعد من حيث بدأنا إلى حياة أسماء وأمها هند فعاشت هند أياماً طويلة يتصدق عليها بعض المحسنين وهي تشعر بمرارةٍ إنها لم تألف هذه الحياة وباتت تلك الليلة مع بنتها وهي على فراش قلقٍ لم تداعب عينيها أصابع الكرى حتى فتح الفجر جفنيه وزقزقت العصافير في أشجارها وأشرقت أشعة الشمس على رؤوس عرائس النخيل والليمون واللوز، هبت هند من سريرها ولم تجد في بيتها طعاماً لتغذي بها هذه اليتيمة عندما تستيقظ من نومها لبست ثوب الذلة والاستكانة ودخلت بيت جيرانها وطلبت من ربة البيت ولو رغيفاً ولو كان يابساً فقدمت لها ربة البيت رغيفاً عندها بقي من مائدة الليل وجاءت به وعلى شفتيها بسمةٌ وفي عينيها دمعةٌ وفي قلبها نارٌ تتوقد لم تكن هند تعرف هذه الحياة وتعيش هذه الظروف وحانت منها لفتةٌ وكأنها الأمل المشرق على جبينها. سأذهب وأكون عاملة في إحدى بيوت الأغنياء وأقنع بطعامٍ لي ولابنتي إزاء ما أوديه من خدمةٍ لهم وأصبح أُطعم ابنتي ونفسي من عرِقٍ أكدح فيه بدون أن يتصدق عليَّ أحد فخرجت هي وبنتها حتى دخلت بيتاً لطبقة من الأغنياء ذات الثروة والنخيل فعرضت نفسها على أن تقوم كطاهية في ذلك البيت وبعد التفاهم مع ربة البيت وافقت على خدمتها وتأدية ما تأمر به وأفردت لها غرفةً مع بنتها فشعرت هند بأن يداً رحيمة تمر على قلبها وتمسح على جسمها لأن مهمتها هي إسعاد هذه اليتيمة التي خلفها والدها في هذه الحياة وليس لدى هند ولدٌ غير هذه البنت فهي تحرص عليها كل الحرص وتضعها بين أجفانها لأنها تراها إمتداداً لحياتها فتفضلت عليها ربة البيت عندما بلغت هذه اليتيمة الثالثة من عمرها فأدخلتها مع بنتها الكتّاب وكان الكتّاب في ذلك الوقت تديره امرأة تنادى بمعلمة وهي تتفلسف ولكنها تفلسف الجاهل لا العالم فهي طبيبة ومعلمة ومرشدة وتحاط بهالة من التقديس عند مثيلاتها من النساء والذي يعلّم في كتاتيب النساء هو كتاب الله، ووفاة الرسول أي سيرة

الرسول الأعظم ﷺ، ومقتل الإمام الحسين عليه السلام يسمى هذا الكتاب بالفخري فإذا البنت حفظت الكتب الثلاثة أصبحت من المثقفات في ذلك العصر لأنها حفظت كتاب الله المجيد وسيرة الرسول الأعظم وسيرة مقتل الإمام الحسين عليه السلام فيشار لها بين النساء بالبنان ولا سيما إذا أضافت إلى معلوماتها قطعةً من الماضي ومن سيرة الأئمة الأطهار فظلت أسماء في هذا الكتَّاب وأمها ترعاها وعندما أنهت الكتب المفروضة عليها في الكتَّاب وقد ذرَّفت على الحادية عشرة من عمرها وفرحت بها أمها وما كادت أن تحملها هذه الحياة لمَّا رأت أبنتها تحفظ هذه الكتب ويحتفل بتخرجها بمأدبة تساق للمعلمة وهذه المأدبة تتكون من رزٍ وخروفٍ ومعه بعض الهدايا والتحف وتبسط المائدة للطالبات ليأكلوا منها فكان ذلك اليوم عيداً لهند تتمنى أن زوجها كان حياً ليرى تخرج بنته وفوزها إلا أن الزمان لم يبقِ ابتسامته على شفتي أسماء طويلاً مرضت أمها ولم يكن هناك مصحٌ في تلك المدينة التي تعيش فيها أو ذلك القطر، التطبيب في ذلك القطر هو تطبيبٌ بدائي، وكلٌ من النساء يدّعي الطب ويصف الوصفات ويعالج وهو لا يعرف كيف يعيش ويجهل أنه جاهل فظلت هند تعاني من مرضها الطويل إلا أن ربة البيت أخذت تحسن لها الأكل وتسقيها من السوائل وتخفف من معاناة أبنتها أسماء وطال مرض هند حتى أدخلها في غيبوبة لا تبصر من حولها ولا تميز بين النهار والليل، وفي صباحٍ انتقلت هند من هذه الحياة الفانية إلى الحياة الباقية وأسلمت بنتها رغماً عليها إلى هذه الحياة التي تعج وتضج بألوان البلايا بقيت أسماء في هذه الحياة لا والدٌ يرعاها ولا أمٌ تضمها وتحنو عليها لقد انحسر عنها الظل الحنون ونضب الينبوع الذي يسقيها في كل لحظةٍ عطفاً ويمدها رياً ويجدد حياتها. بقيت حزينة ولكنَّ خالقها عوضها حيث لم يكن لها مقامٌ في ذلك البيت لأن أمها كانت تُعطى لقاء خدمتها طعاماً وأجراً، أما أسماء فهي مدللة عند أمها ولم تمارس هذه الحياة الثقيلة المجهدة. نُميَ خبرها إلى أحد المحسنين فانتشلها وجاء بها إلى بيته وأوصى زوجه بمعاملتها المعاملة الحسنة وشدد على زوجه أن هذه ثكلت

باليتم فلابد من رعايتها وأن تكون هذه الرعاية خالصة لوجه الله لا تُشاب بأغراضٍ تعاملية، فجاءت أسماء إلى هذا البيت غريبة ومن الصدف السعيدة أن يكون عند ذلك المحسن بنت هي ترب لأسماء فاستقبلتها لمياء بنت المحسن وعاشت معها عيشة أخت لأختها يناماه معاً ويأكلان في طبق واحد فنسيت أسماء آلامها والنسيان إحدى وسائل السعادة في الحياة ولولا النسيان لمتنا قبل يومنا لم تشعر أسماء بالغربة أو اليتم بعد أن جاءت إلى هذا العش الجميل الذي فاض عليها بالعطف والحنان، تعيش عيشة بناته وتمارس ما يمارسنَهُ لا فرق عنده بينها وبينهنَّ فنمت أسماء حتى تفتحت فكانت زنبقة نديانةً بيضاء تضج بالأنوثة وقد نضجت ثمارها وتدلى قطافها وتقدم إليها بعض الشباب لخطبتها للزواج منها وأسماء لا تعرف هؤلاء الأشخاص وما يدور في حياتهم لأنها لابسةٌ في بيتها متقوقعة فيه فلم تجب إلى الزواج منهم أحداً وبعد أعوامٍ خشيت أسماء أن يفوتها قطار الزواج فتقدم لها شابٌ وكان حظها التعيس أن تصادق على الزواج منه زُفت أسماء إليه ومنذ دخلت بيته نسيت السعادة التي تمتعت بها وعاشت في جحيم مسَّعَّرٍ لم يهنأ لها عيشٌ ولم تداعب جفنها أصابع الكرى فظلت حزينةً كاسفةَ اللون تجترُّ ماضيها السعيد وتندم على قرانها النحس الذي لم تجنِ منه إلا الحنضل والشوك عاشت أسماء في حياة قاسية ومازالت تعلق أحزانها المريرة حتى أصيبت بأمراضٍ أقعدتها فظلت معطلةً تنوء بأعبائها ملقاةً على سريرها، للعوامل التي عاملها زوجها وقسى عليها كما تقسو الوحوش على فريستها لعل الوحش لا يقسو على وحشٍ مثله، وإنما يقسو ويفترس إذا جاع أما هذا الزوج وهو بشرٌ في صورة وحشٍ يفترس هذه الزوجة في كل لحظةٍ ويجرحها في كل آنٍ. لم تطق أسماء هذه الحياة فكانت تفضل الموت على هذه الحياة الوحشية القاسية فظلت تناجي ربها وتدعوه أن يخلعها من قيد هذه الحياة التي أصبحت فريسة لزوجٍ لا يعرف ذرةً من إنسانية ولا يعشق إلا المادة فهي معشوقته الوحيدة وهي الهدف من حياته وغايته فهو يقتِّرُ على زوجه ولا يغذيها بطعامٍ يقيم أودَها فطعامها لا

يزيد عن رغيفٍ وإذا تفضل معه كأسٌ من لبن فسأمت أسماء هذه المعيشة، فظلت تصارع هذه الحياة بين الحياة والأمراض المضنية، وأخيراً استسلمت للموت الذي لا بد منه وكانت نتيجة حتمية لحياة زوجٍ ظالم.

١٤/٠٨/١٤٢٥ هـ

٢٨/٠٩/٢٠٠٤ م

الشبح
الخامس والعشرون

إن لشهر رمضان الشهر الفضيل ذكرياتٍ تمر في لياليه وتنطوي بانطواء أيامه ولياليه ولكنها تظل رؤًى في ذاكرة من عاشه وذكرى خلود في ذاكرة التاريخ ولكنَّ الزمن الذي يأتي على كل شيء ويُبلي الإنسان في كرِّ الجديدين إنَّ كر الجديدين تتساقط أمام أشباحه أبناء البشر كما يتساقط الورق من الشجر أمام الريح العاتي فيزول وينتهي وينطوي طي السجل فتطوى معه ذكرياته بحلوها ومرِّها وابتسامته ودمعه وحزنه وفرحه، ولا يبقى منه حتى بعض بصيصٍ في شخصيته ليبصرها من يعيش بعده أو للأجيال التي تتعاقب على هذه الحياة ولكنَّ الإنسان المفكر الذي يترك له بصماتٍ على صفحات الكون من فكرٍ سيبقى ذكره مسجلاً في ذاكرة التاريخ إن أسعفه الزمن وقلَّبته يد منتقديه أو حفِلَ به مفكرون آخرون ليجددوا من حياته كل ما أخلقه الزمن عاد جديداً يدور مع الشمس ويشرق مع الصباح، هكذا الحياة دروسٌ وعبرٌ بعد عبر فالذكريات هي أصداء السنين، فإذا لم يسجل هذا الصدى في شريطٍ أو ذاك المنظر في بلورة عدسة مصور أو في رسمة فنانٍ يعيش في تلك الرسمة أو في حرف سفرٍ يقرأ كلما فُتح ذلك السفر سينتهي كأنه خيالٌ أو شبحٌ لم يلامس هذه الحياة ولم يعش تحت آفاقها يتمتع بكل ما منحه خالقه من مناظر الطبيعة وما فيها من خيرات. كل هذا يزول ويبقى ذكره لأن الفكر أقوى من التاريخ وما التاريخ إلا قطعة انفصلت من فكر العبقري رسمها وخطط لها في رسمته الفنية لتبقى تصارع الدهر وقد يتغلب الزمن على هذا الفكر فيندثر كما أندثر صاحب ذلك الفكر،

وسار في تلافيف الزمن لا يُعرف ولا يُذكر. إن العبقرية هي ينبوع خيرٍ تتدفق لهذه الحياة هبةً من خالقنا وفضلاً وامتناناً على هذه البشرية لتسعد وتعيش في حياةٍ هنيئةٍ وتمر بهذه الحياة مرور الزائر العجلان إلى حياةٍ أفضل وأبقى، وهذه التوطئة جاءت لتسجل حواراً دار بين فتاتين أديبتين عن ذكرياتٍ لهما في ليال شهرٍ من أفضل الشهور.

في هذا الشهر الفضيل الذي لياليه أفضل الليالي وأيامه أفضل الأيام وساعاته أفضل الساعات وأنفاس الصائم فيه عبادة كما جاء عن الخاتم ﷺ كانت سعاد وزينب تلتقيا كل ليلةٍ في هذا الشهر العظيم حتى هزيع الليل منه وتقرأ أفكاراً تدور حول التاريخ وحول الحياة وما يجدُّ فيها، وذات ليلة من لياليه اقترحت زينب على سعاد أن يفرغا ما عندهما من ذكرياتهما ويسجلاها في سفرٍ ليكون تاريخاً يمثل عادات شعبٍ يمارسها في أفضل شهر وهو شهر رمضان فأجابتها سعاد شاكرة لها هذا الاقتراح، فأضافت سعاد عندي اقتراح أن نفرغ العادات الماضية التي احتفظت بها ذاكرة التاريخ وروتها لنا أمنا وجدتنا، ونضيف إليها الذكريات التي نشاهد مناظرها التي تدور أمام أعيننا لتكتمل الحلقة وتكون حلقة كاملة مفيدة، وطلبت من زينب أن تبدأ عن أقصوصة الماضي وما فيه من حسن وغير حسن إن كان، فأجابت زينب ملبية لهذا الرأي الذي يجمع الماضي والحاضر فمن لا ماضي له لا حاضر له،إنَّ الحاضر يرتبط بالماضي ويمتزج به امتزاج الدم في جسم الإنسان أو امتزاج الضوء بالضوء وهنا بدأت زينب تقص أقصوصتها وتشرح أطروحة الماضي وما فيها من ألوانٍ فنشرت صفحات الماضي لتقرأ منه، فبدأت إنَّ الماضي يا سعاد كان ممتعاً وكان متعباً وهل مرَّ زمنٌ لا يحمل سلبيات وإيجابيات، لابد في الحياة من سلبيات وإيجابيات لا تتم الحياة كلها سرور أو كلها حزن إنما مرها أكثر من حلوها وحزنها أطول من فرحها وبرغم هذا وذاك سأقص عليكِ ما وعته ذاكرتي من أحاديث أمي وأقصوصات جدتي. كانوا في الماضي يستعدون لهذا الشهر العظيم استعداداً هائلاً وينفقون فيه كما تقول جدتي ما يعادل

ثلث ما ينفقونه في العام أو يزيد على ذلك فمنذ أن يهلَّ رجب المرَّجب، أو رجب الأصب يستعد الناس لهذا الشهر الفضيل، فإذا مررتِ في شوارع القلعة حاضرة القطيف أو بعض ضواحيها أو مدنها أو قراها تأخذك أصوات الطواحين التي تديرها أيدي نسائية وتأخذك مدقات الحنطة وتسمعين الجلبة من كل سماء بيت استعداداً وتهيئةً إلى تلك الأطعمة وألوان الأكل التي تعد وتهيّأ لهذا الشهر العظيم، وعندما يصافح ذلك الشهر بقمره الفضي وبفرحته الهنيئة وبحلمه السعيد يغطي بأفراحه على المدينة وعلى القرى، برغم أنه لا توجد مصابيح كهربائية أو إضاءة إنما تعيش الأكثرية على فوانيس[1] وأكثر القرى والضواحي يعيشون على ضوء شمعة باهتة وألوان خامدة الظل وقليل هم الذين يعيشون على مشاعل توقد بالكيروسين أي الكاز وتسمى في اللغة الشعبية القطيفية أتريك وبرغم هذا الظلام الذي يستصبح به المؤمنون الصائمون تأخذك الروعة في منعطفات المدينة وفي شوارعها وطرقها فضلا عن مساجدها وبيوتها، وحسينياتها فتأخذك السهرات الفكرية والأدبية والعلمية والمساجلات الشعرية والسمر الذي تقضيه الفتيات مع الفتيات والفتيان مع الفتيان في لقاءات دورية تنظم على شكل مأدبة بسيطة في كل ليلة في بيت وهذه الدورات تشرِقُ بهجة وروعة حتى كأنك تعيش في عالم طهر ولا تنسى دور المسحراتية فقد كان لهم منظر بهيج حيث يطرقون كل بيت وهم يزغردون بموال شعبي ويضربون دفوفهم مع ثلة من الصبيان ليوقظون أرباب البيوت لتناولهم مائدة السحور فلو شاهدتهم لشاهدتَ تلك الروعة البهيجة التي تمتزج بالفن الشعبي وبالبساطة التي لا تعقيد فيها، فتستيقظ كل عائلة إذا كانت حالمة بسهرها أو في كراها استعداداً لإعداد طعام السحور وما فيها من لذةٍ ومعنويات لا يتصورها ولا يتذوقها إلا الصائمون ولا يستسلمون للكرى إلا بعد صلاة الفجر فبعد تأدية المكتوبة التي فرضها الله على عباده يخلد كلٌ منهم إلى

---

(١) تم الإشارة إلى الفوانيس في كتاب خيوط من الشمس.

الكرى حتى تستيقظ الشريحة العاملة منهم إلى شظف العيش وميدان وهج الحياة وأخرى المترفة تغط في نومها حتى صلاة الظهر والناس طبقات وعندما يحين العصر تستعد ربات البيوت للقيام بأنواع الطهو وعندما يحين الغروب تقدم تلك الأطباق المختلفة الألوان على مائدة الإفطار ويعيش الفقير في ذلك الشهر سعيداً ينسى بؤسه وويلاته طيلة هذا الشهر كما تنبعث التلاوات بالقرآن العظيم والفرقان المبين من كل بيت ومسجد ونوادٍ وحسينيات، كما ينبعث الدعاء. الثروة الضخمة التي تركها للبشرية رسول الله ﷺ الأطهار من كل ناحية من نواحي المدينة وكأنك تعيش في ربيع القرآن وربيع الدعاء حتى لينسى الشخص همومه وما يلاقي من ويلات الحياة وما ظنك بالفقير البائس الذي نسيَّ جروحه وما يطفو عليها من ألوان العذاب والحرمان وعاش كأنه يعيش مع أرباب القصور الأغنياء، هكذا كانت الذكريات الماضيات في الشهر العظيم الماضي، وحينما يقفل شهر رمضان ويُغرب هلاله وراء ضباب هذه الحياة ليطل هلال شوال عادت الحياة إلى ليلها المظلم المكثف وعاد الفقير البائس إلى بؤسه إلا قليلاً من ذوي الإحسان الذين يحبون أنفسهم فيعطفون على أولئك المحرومين والبائسين من اليتامى والنساء والعاجزين، أما الذكرى الحاضرة يا سعاد برغم ما نعيشه من بحبوحةٍ فضفاضةٍ تمتد ظلالها على بيوتنا وحياتنا وبرغم أننا نعيش في عصر الكهرباء والإنارة حتى أصبح ليلنا كأنه نهارنا ونمارس أعمالنا في ليلنا كما مارسها من قبلنا في نهارهم فقد تساوت عندنا حركة الحياة في الليل والنهار أنا لا أنكر أن النهار له عينه المبصرة مهما تغلبنا على الصعاب إلا أن حركة الحياة كادت أن تتساوى في الجديدين وبرغم ما لدينا من المبردات ومن الأجهزة التي تخفف ويلات الحياة وتساعدنا على تخفيف ما نعانيه وكان آباؤنا يشربون الماء الحارة إذ لا مبردات لديهم ولا ثلج ولكنهم يشعرون بحياة أسعد من هذه الحياة إذ لا تعقيد لديهم ولا طمع كما نلهث اليوم وراء دنيا فهم يعيشون في دعة وقناعة لو فتشت يا سعاد عن صفحات الماضي وصفحات الحاضر ونشرتِ كتابيهما لوجدتِ

البون شاسعاً، فآباؤنا كانوا يعيشون في فقر مدقع وحياة إذا نظرتِ لها ونظرتِ لحياتنا رأيت نعيماً وجحيماً ولكنَّ آباءنا في الماضي تغلبوا على هذه السلبيات وعاشوا بأهنأ عيشة وذللوا لهم كل صعب وروضوه فامتطوه وساروا عليه في حياتهم القاسية إلى غاياتهم بصبر وإيمان وعزم لقد أنطوت من حاضرنا بعض الذكريات فأين منظر المسحراتية وما فيه من روعة وبهجة لا تسمعين لهم صوتاً وأين تلك القراءات الفكرية والمساجلات الشعرية والمناظرات الفكرية كلها انطوت أنا لا أنكر يا سعاد أن لون الحياة قد تبدل وصار في منعطف غير منعطف الماضي إلا أن السهرات الحالية سهرات جوفاء لا طعم فيها حيث نغرق الليل بالقيل والقال وبالتوافه التي لا تعود على من سهر أو تلك الندوات بخيرٍ وقد تعود لا سمح الله بشر أو بخصوماتٍ تنبعث من جدل تافهٍ لا يمتُ للحقيقة ولا يمس قلب الواقع أنا لا أنكر أن ظل النعمة زادنا تدليلاً وخفف عنا صعوباتٍ ولعل السهرات أكثر بكثير من الماضي ولعل انتشار قراءة القرآن والأدعية على رقعة أوسع من الرقعة الماضية والحسينيات اتسعت لتشمل جميع المدن والضواحي والقرى ولكن الفارق بين الأمس واليوم هو الروح المعنوية التي تتلقى القرآن أو الدعاء بروحٍ عطشى تكاد تشربه لتستقر في دنيا راحة وروح أما اليوم فالقارئ يتلو القرآن والآخرون هم في سماءٍ غير سماء القارئ يعيشون في دنيا أطماعٍ ولهفةٍ إلى المادة لأن الإنسان الحديث لا يشبع ولا يقنع فهو كجوعان تعقدت حياته فهو لا يبصر غير الحياة الاقتصادية التي فيها بريق الريال أنا لا أنكر الاحتفالات والبهجة التي تغمرنا من جراء هذا الشهر الكريم ولعله اتسعت نواحي دينية أكثر من ذي قبل لتمدد الاقتصاد وخصوبته ولكنها لا تحمل الطابع الروحي إنما هي اجتماعات جوفاء والمعنويات يا سعاد والروحيات لا تشترى ولا تباع إنما تنبع من قلب المؤمن إذ لا يرى في الحياة شيئا إلا خالقه ولا يعمل في سبيل الخير إلا من أجل مرضاة ربه الذي أنعم عليه فهل أنتِ يا سعاد توافقيني على هذه الفكرة أم تخطئيني آمل أن أقرأ رأيك في أجابتك لي فقالت سعاد يا زينب

إنني اختصر مقالتي كما يختصر محبٌ لمحبه رسالة الشوق بلحظ العيون وخفقة القلوب لقد قلتِ وكان قولكِ الصدق والحق وتحدثتِ فصورتِ الماضي والحاضر في حروف بليغةٍ تلمسنا الواقع فشكراً لك راجية من الله أن يعيد علينا هذا الشهر الفضيل سنيناً وأن نقوم بواجباتنا فيه ونكون من الصائمين القائمين الشاكرين لله والراضين بقضائه وقدره وطوتا الحديث في صفحات سجلتاهما من ذكريات الفكر إلى ذكريات التاريخ.

٠٩/١٠/١٤٢٥ هـ
٢٢/١١/٢٠٠٤ م

الشبح
السادس والعشرون

جمعت الأقدار طالبين أسماهما سعيد، ورمزي، وكانا من قبل لا يعرف أحدهما الآخر ولكنَّ هذه الصدفة الجميلة عرَّفت كلاً منهما على أخيه وكانا يدرسان العلوم الدينية في الحوزة العلمية بعيداً عن وطنهما فأخذا يتحاوران ويتحدثان عن ظاهرةٍ شعرا بها في مجتمعيهما، فبدأ سعيد يسأل رمزي هل تشعر وتلمس كما ألمس وأشعر من هذه الظاهرة التي توَّلدت في أفق مجتمعنا بحيث انتشرت وغطت ظلالها على أفاق حياة الطلاب ولم تسلني يا رمزي ما هي هذه الظاهرة التي غمرت مجتمعنا وغطَّته كما يغطي الضباب ذلك الأفق إن هذه الظاهرة التي شاعت في مجتمعنا ونمت هي ظاهرة خطيرة تهدد المجتمع بموجات من عناصر الكسل والاستسلام إلى حياةٍ رديئة قد تؤدي بهذا المجتمع إلى هاوية فقرٍ وبؤس ولا أعرف كيف تفَّشت هذه الظاهرة ومن أين نجمت. لعلي أعلل أسباب هذه الظاهرة بالرخاء الاقتصادي الذي مدَّ ظله الأخضر على سماء بلادنا ولا أدَّعي أن هذا التعليل هو العنصر الوحيد لعل هناك عناصر أخرى لم يكشف عنها حاضرنا وتغلف بضباب من الحياة تعيش خلفه الله هو العليم بذلك ولكنَّ هذه الظاهرة ناتجة عن الكسل والانهزامية من قبل البعض في الدراسة النظامية فيقفزون إلى دراسة الحوزة العلمية ولا أعمم هذه المقولة فقسمٌ كبيرٌ من هذه الشريحة كان يحالفهم النجاح في الدراسة النظامية والعمل فيتركون الدراسات العليا والعمل الذين هم فيه في قمة الدراسة والعمل فيذهبون لدراسة العلم الديني الحوزوي ووجهتهم طلب الدراسة

للدراسة في سبيل خدمة الدين والوطن لا يبتغون عليه أجراً ولكنَّ الشريحة المفزعة التي تفشل في دراستها النظامية أو التي لا تتحصل على عملٍ من الأعمال وهدفها العيش والعيش فقط، لذلك تلجأ إلى الدراسة الحوزوية متشبثةً بالراتب الشهري الذي يجرى لها عن طريق الحوزة لتعيش في نعيمٍ فتلبس الكسل والخمول ولو رجعنا القهقرى وفتحنا كتاب سفر الماضي لقرأنا في صفحاته شريحةً قليلة قد يحالفها الفشل في الدراسة النظامية أو الدراسة الحوزوية ولكنها لا تتجاوز أصابع اليد وليس لديها نهمٌ لحب المادة كما تفشت ظاهرة اليوم. فلا تلجأ لما تلجأُ له شريحة اليوم، صمت رمزي كأنه يقرأ حروفاً في صفحات الحاضر ويقلِّب كتاباً للماضي فقال يا سعيد إن مقولتك تمتد إلى واقعنا الذي نعيش علىٰ صعيده هناك شريحتان شريحةٌ كما قلتَ حالفها النجاح وتذهب للعلم والدراسة لا لغيرهما ولخدمة الدين والوطن وهناك شريحةٌ يحالفها الإخفاق في ميدان حياتها فتلجأ لتستظل بظلال الحوزة بهدف الدراسة وهي بعيدة كل البعد عن الدراسة لأنها لا تحاول أن تكرس وقتها وتنفقه في ذلك الدرس فما الحل لهذه الظاهرة؟ وما عندك من وصفةٍ لعلاج ذلك الداء؟ فقال سعيد أخي رمزي إنَّ لديَّ وصفةً ناجعةً تعالج هذا الداء علاجاً ناجحاً ومجرباً إنني أقترح أن تؤلف لجنة من ذوي المعرفة وأرباب الضمائر الحية العامرة بالإيمان التي لا تغريها مباهج الحياة ولا تزعزعها الأهواء ولا تميلها الريح أن يكون لها الدور في امتحان الطالب على رأس كل شهر كما يطبق في المدارس النظامية فإذا كان ذلك الطالب قد حالفه النجاح فليواصل دراسته ويزاد راتبه الشهري، وإذا لم يحالفه النجاح يعطى إنذاراً لفترةٍ يمتحن بعدها فإذا لم يتبدَّل يقطع مرتبه ويحرم منه. أظن أن هذه الوصفة ستقضي على هذا الداء لأن الطالب الذي لم يحالفه النجاح حينما يقطع مرتبه سينسلُّ من تلك الدراسة كما ينسل الخيال من رؤية راءٍ، أما الطالب الذي حالفه النجاح وزيد في مرتبه فسيزداد نشاطه وطموحه إلى أبعد الحدود حتى ينتج إنتاجاً يسر ويفرح، فهل توافقني يا رمزي على هذا الحل بعلاج هذه الوصفة لهذا

الداء. فأجابه رمزي إن وصفتك يا أخي سعيد لامست قلب الواقع وصورته في حروفٍ يكاد يمسها كل منصفٍ ويأخذ بتطبيقها على الواقع.

١٨/ ١٠/ ١٤٢٥ هـ

٠١/ ١٢/ ٢٠٠٤ م

تعقيب وتصحيح

ورأيت إتماما للفائدة أن أُلحق هذه الأطروحة بالمقال الذي أدرته حول القضاء ونشر في مجلة الواحة العدد ٢١ الربع الثاني ٢٠٠١ م «عبقري غطى عليه التاريخ» فأنا أثبته هنا حرفياً كما نشر «عبقري غطى عليه جدار التاريخ»

مع رجال عاصرتهم (٨) تعقيب وتصحيح

محمد سعيد الشيخ على الخنيزي

توطئة: جهد وطني.. ولكن

إن التاريخ وثيقة من الوثائق الثمينة الغالية التي هي أمانة في أعناقنا وبالتاريخ تحفظ المآثر وتخلد الأمم وتعيش الأفكار أنوارا تهدي السائرين في عتمة الحياة وفى دروبها الملتوية فالتاريخ ركيزة من ركائز الحياة الماضية والآتية، فإذا انطمست ركيزة أو انحرف مؤرخ، أو نسى أحداث التاريخ جاء التاريخ مجانباً للحقيقة المنشودة وقد يظلم بعض الشخصيات ويضفي على بعض الشخصيات وكم من عبقري غطى عليه جدار التاريخ ودفنه ركاما بين أيامه ولياليه لا أريد أن أطيل الحديث حول حركة التاريخ وسكونها وما اكتنفتها من ظروف وأهواء وريشةٍ رسمت للتاريخ مناظر بعضها صورت الحقيقة وبعضها جانبتها .

إنما أردت بهذه التوطئة القصيرة لأدخل إلى موضوع قرأته في مجلة الواحة الغراء في عددها العشرين الصادر في الربع الأول عام واحد بعد

الألفين ميلادي ضمن ملف القضاء،فالقضاء ليس هو مؤسسة اجتماعية، أو كإحدى المؤسسات التي هي كأداةٍ تؤدي دورها في المجتمع ثم تنتهي، إنما القضاء منصبٌ مقدس في الإسلام منذ بعث خاتم الأنبياءﷺ فدوره الفصل في حياة المجتمع تدور عليه في أحكامه كالنفوس والأموال والدماء والفروج والأعراض . والقضاء في المملكة العربية السعودية : قضاء إسلامي يرتكز في أحكامه على دعامتين (الكتاب والسنة)فهو من أقدس المناصب وحتى في البلاد المدنية كالغرب، التي لا تستعمل القضاء إلا حسب قوانينها المدنية التي تضعها فهو لديها محترم ومقدس ولا أريد أن ادخل بك يا قارئي في بحث متشعب وهدفي من هذا التعقيب أن أصحح بعض المفاهيم التاريخية التي وقعت في مقال الأستاذ الصديق/ السيد على السيد باقر العوامي تحت عنوان: (رجال عاصرتهم ـ الشيخ أبو عبد الكريم الخنيزي).

والأستاذ / العوامي: يشكر على هذه الجهود الوطنية التي قام بها في هذه الحلقات المتوالية وهدفه الإخلاص والإشادة برجالات بلاده ولكنَّ صدأ التأريخ والفجوة الزمنية أوقعته في خطأ بعض مفاهيم للتاريخ ونسيان لحوادثه البعيدة التي مر عليها أكثر من نصف قرن وليتسع صدره لردي وتصحيحي لبعض الأخطاء.

أولاً: احتكار الخدمة السياسية والاجتماعية

ذكر في صدر مقاله تخصيص الزعيم الشيخ / أبي عبد الكريم الخنيزي (ر. هـ) انفراده بالخدمة السياسية والاجتماعية دون غيره ونسي الشيخ / محمد على الجشي والشيخ / منصور آل سيف الذي هو أحد الزعماء والشيخ حسن علي البدر و الإمام الشيخ أبا الحسن الخنيزي فإنه أي (أبو الحسن الخنيزي) خدم هذه البلاد وقضاياها الاجتماعية والسياسية منذ وطأت رجله أرضها في رجب عام تسعة وعشرين بعد الثلاثمائة والألف هجري منفردا تارة وأحيانا مع ابن أخيه وطورا مع بعض

الشخصيات كالزعيم علي بن حسن أبي السعود والعلامتين الشيخ/ محمد على الجشي والشيخ منصور آل سيف وأحمد سنبل والزعيم / عبد الله نصر الله مضافا إلى أعباء القضاء حتى رحيله عن هذه الدنيا الفانية وسوف أُذكِّره ببرهانٍ حيٍّ فقد حضر تركة الإمام أبى الحسن الخنيزي وابتاع منها ثلاجة بأربعين روبية وفي تلك الجلسة احضر الأخ الشيخ / حسن أبو عبد الواحد (ر. هـ) منضدة ابتاعها/ عبد الحميد سعود أبو السعود والشاهد هنا حيث كانت تضم تلك المنضدة أوراقا للشيخ أبي الحسن الخنيزي تدور بينه وبين المغفور له جلالة الملك عبد العزيز آل سعود طيب الله ثراه فأخرج الأخ أبو عبد الواحد من داخل المنضدة تلك الأوراق حيث أنه لا تتبع المنضدة في البيع وأردف الأخ/ أبو عبد الواحد هذه وثائق غالية عندي لأنها تدور بين أبي وجلالة الملك عبد العزيز آل سعود طيب الله ثراه واذكر من ضمنها برقية مرفوعة من الشيخ/ أبي الحسن الخنيزي بتوقيعه الخاص تدور حول حادث السيد الصفوانى وهذا الحادث وقع في الخمسينات بعد الثلاثمائة والألف هجري وهذه الأوراق كلها صارت عند الأخ أبي عبد الواحد وما ادري ماذا فعل بها الزمن وأنت يا أستاذ / أبا كامل.. قد صار عندك تداخلاً حيث أشرت إلى طبيعة عمل الشيخ / منصور آل سيف والشيخ/ محمد على الجشي حيث قاما بزيارة جلالة الملك / عبد العزيز آل سعود في مهمة وطنية كما أشرت للعلامة السيد ماجد العوامي في اشتراكه في بعض الأحداث فتخصيصك للزعيم أنقضتهُ بنفسك على نفسك، ونحن لا ننكر دور الزعيم الشيخ / أبي عبد الكريم الخنيزي في خدمة هذا الوطن وتضحياته إنما حصرك فيه دون غيره يخالف الحقيقة التاريخية ويغمط حق الآخرين.

ثانياً: حصر القضاء في فرد

يا أستاذ / أبا كامل..

حصرتَ القضاء في الزعيم/ أبي عبد الكريم الخنيزي، وقلت عندما

مرض أناب عنه عمه في القضاء وكلتاهما غير صحيح فأبو الحسن الخنيزي منذ وطأت رجلاه أرض هذا الوطن كان يقضي بين الناس فالخنيزيان هما القاضيان للطائفتين (الشيعة والسنة) وقد رأيتُ الخصمين يأتيان مع (الخوي) بأمر من الأمير يترافعان عند الشيخ أبي الحسن الخنيزي وأنا أسوق لك البراهين. ففي عام سبعة وخمسين بعد الثلاثمائة والألف هجري وقع نزاع بين سعيد الضامن وعبد الله بن حسين الفرج أحيل رسميا للإمام الخنيزي وكان المحاميان لهما / حسين الشبيب عن سعيد الضامن وحسن الفرج عن عبد الله الفرج وبتّ فيه بالوجه الشرعي بعد أن عجز غيره عن حله. وتفاصيل هذه القضية ومصدر روايتها في كتاب خيوط من الشمس وقد رأيت الشاعر / خالد الفرج مع احمد البقشي يترافعان عند الإمام الخنيزي قرابة عام التاسع والخمسين وفى العام الذي قبله بعد وفاة السيد مكي المشقاب عام ثمانية وخمسين بعد الثلاثمائة والألف هجري أحيلت معاملة رسمية من شرطة القطيف هي شكوى من المرحوم حسن علي المرزوق حول ميراث زوجه من زوجها السابق السيد مكي المشقاب على وصيه السيد إبراهيم المشقاب.

أما قولك يا أستاذ فقد عمل أبو الحسن الخنيزي في القضاء بالنيابة عن ابن أخيه فلا صحة له، ولا أدرى من أين أتيت بهذه الرواية وليس هناك محكمة تجمع رئيساً ونائباً وكتَّاباً إنما كلٌ من الخنيزيين يقضيان في بيتيهما بدون مرتب ولا أوراق ولا دفاتر كل هذا من جيبهما قربةً إلى الله، وهل هناك أمر من ولي الأمر يخوِّلُ أو يأمر الشيخ أبو عبد الكريم بجعل عمه نائبا عنه؟ وإنني لم اسمع بهذه الرواية وأنا اللصيق بالخنيزيين إلا منك يا أبا كامل بعد أن مر على هذه الأحداث أكثر من نصف قرن. ويا ليتك تسندها لراوٍ من الرواة وأنت المعاصر لهما ولكن قد تصدأ الذكرى، وهناك براهين كقضية العلامة الشيخ محمد بن نمر حينما رفع عليه دعوى آل رقية والشيخ محمد توفي عام ثمانية وأربعين بعد الثلاثمائة والألف هجري حين رفض التقاضي عند غير الإمام أبي الحسن الخنيزي لأنه يرى في نفسه

أفضل الموجودين، ولا أفضل منه إلا أبي الحسن الخنيزي، وحسب مقولته أنه لا يجوز للفاضل أن يتقاضى عند المفضول، كما رواها أشخاصٌ كثر من ضمنهم حسن علي المرزوق، الذي كان شاهداً للحدث كما أخبرني، والسيد حسين السيد سلمان، ولو لم يكن الشيخ علي أبو الحسن الخنيزي قاضياً لما صحَّ من العلامة الشيخ محمد النمر هذا الطلب من جهة رسمية.
و أريد أن أوضح نقطة عن سير القضاء:

فقد كان يأتي الخصمان اختيارا وطوعا للخنيزيين وإذا رفض المدعى عليه الحضور لدى الشرع طوعاً هدده المدعي بالخروج على الشرع ونزل من الأعين عند الناس، ونقطةٌ أخرى تأتي الإحالة للخصمين من أمير القطيف مع مندوبٍ منه، فيفصل القاضي بين الخصمين، فيكتب القاضي حكماً يسمى مفلاجاً، وهذه المنهجية للقضاء قبل أن تُنشئ الدولة جهازاً للشرطة تتولى المعاملات والدعاوى والإيقاعات، ومنذ أُنشئ ذلك الجهاز النظامي للشرطة أصبحت المخاطبات وإحالة الدعاوى على خطاباتٍ رسمية تتكون من معاملاتٍ تسلسلية بالأرقام، ودفتر صادر ووارد حتى اضطر الشيخ أبو الحسن الخنيزي إلى وضع دفترين «صادر ووارد»، وقد نظَّمها حسب الأنظمة الرسمية في ذلك الوقت الوجيه / عبد الجليل محمد الزهيري، وبعد وفاة الإمام الشيخ علي أبي الحسن الخنيزي صارت هذه الدفاتر عند الأخ / أبي عبد الواحد ولا أعرف مصيرها، ولعل تاريخ إنشاء جهاز شرطة القطيف عام ثمانية وخمسين بعد الثلاثمائة والألف هجري.

ليس فقط قضية المرهون

والأغرب منك يا أستاذ قولتك أن الشيخ أبا الحسن الخنيزي لم يتدخل في قضية اجتماعية سياسية إلا في قضية الشيخ منصور المرهون وابنه الشيخ علي، لأنَّ الشيخ أبا عبد الكريم كان في البحرين وغريب جدا لان قضية الشيخ منصور وقعت في يوم الثامن من شوال عام واحد وستين بعد الثلاثمائة والألف هجري والشيخ أبو عبد الكريم لم يسافر البحرين إلا في

شهر محرم عام اثنين وستين بعد الثلاثمائة والآلف هجري وأبو الحسن الخنيزي لم يتوقف في مسيرته الدينية أو الاجتماعية أو السياسية على أحد من الأشخاص بل هو حركة دائبة لا تعرف التفتير في خدمة هذا الوطن في جميع قضاياه وفى مواقفه المشهودة كالمطالبة في تخفيض الزكاة وغيرها من المطالب الوطنية وتشهد له المكاتبات التي بينه وبين جلالة الملك المغفور له / عبد العزيز آل سعود التي أشرنا إليها وعندما وقف المرحوم عبد الله بن حسين آل نصر ضد الشيخ أبي عبد الكريم كان الشيخ أبو الحسن الخنيزي يناصر ابن أخيه لأنه على الحق فيرسل إلى مقلديه (أي مقلدِ الشيخ أبو الحسن) فيسحبون توقيعهم وعلى سبيل المثال لا الحصر (إبراهيم الرميح ومنصور الحلال) فينضمون إلى الشيخ أبي عبد الكريم وأنا شاهدت هذه الأحداث عن كثب وكانت إحدى الركائز لهزيمة عبد الله النصر. ونسيت مقالتك التي عبرت فيها عن الشيخ أبي الحسن الخنيزي بعالِم الشعب وما معنى عالِم الشعب؟ هل هو الذي يعيش في برجه العاجي أو الذي يشارك الناس آلامهم وأفراحهم ولا سيما الطبقة الفقيرة منهم فالشيخ أبو الحسن الخنيزي هو الذي ينزل إلى أصحاب الأكواخ في أكواخهم فيعلمهم الدين الإسلامي والأخلاق الفاضلة التي نص عليها الإسلام.

مع السيد / حسن العوامي:

كما وقع الأستاذ / سيد حسن العوامي في مقاله (القضاء الشيعي في القطيف) الواقع والطموح ص ٤٣ بمجلة الواحة العدد العشرين الربع الأول ٢٠٠١ م في مفهوم خطأ تاريخي حيث حصر مدة قضاء الإمام / أبي الحسن الخنيزي في عام وتسعة اشهر وهذا خطأ يجانب الواقع وقد صححنا هذا المفهوم بالبراهين الواقعية وهناك برهان ملموس حيث كانت تلك الفترة منهجيتها أن يكتب القاضي مذكرة يطلب فيها من كاتب العدل صكا رسميا لإثبات العقارات فيها ويعيدها القاضي لكاتب العدل لتسجيل ذلك العقار

وقد وجدت أوراقا رسمية في عام الستين بعد الثلاثمائة والألف هجرية وما قبل هذا التاريخ وما بعده صادرة ومثبتة من الشيخ علي أبي الحسن الخنيزي اطلعت عليها عند بعض الناس حينما كنت أمارس المحاماة وإن كنت تقصد بالعام وتسعة أشهر بانحصار القضاء في الشيخ أبي الحسن الخنيزي دون غيره بعد رحيل ابن أخيه فهذا صحيح وأحب أن أشير هنا إلى ظاهرتين ميزتا الإمام أبا الحسن الخنيزي والزعيم أبا عبد الكريم الخنيزي فقد وقع لكل منهما إيقاع فأبو الحسن جاء ابنه المرحوم العلامة الشيخ/ عبد الحميد قبل سفره للنجف لطلب العلم ولعله عام خمسة وخمسين بعد الثلاثمائة والألف هجري حيث سفره كان عام ستة وخمسين بعد الثلاثمائة والألف جاء يترافع مع شخص يدعى الشنخنخ وباختصار حكم الوالد على الابن وربح الدعوى الشنخنخ وهذا الحدث سمعته من نفس العلامة الشيخ عبد الحميد وكان يردده معجبا به.

كما وقع للشيخ أبي عبد الكريم ترافع عنده بين أبيه وشخص من إخواننا السنة وحكم أبو عبد الكريم على أبيه وربح الدعوى الآخر وهذه غاية النزاهة والعدل حيث لا يفرق الخنيزيان بين ذي رحمٍ أو بعيد

عودة لرجال عاصرتهم والمجتهدين الأربعة:

كما حصرت يا أبا كامل المجتهدين في أربعة ونسيت العلامتين الشيخ / محمد بن نمر، والشيخ حسن علي البدر وقلت عندما رحل الشيخ / أبو عبد الكريم: أن جلالة الملك عبد العزيز آل سعود أرسل برقية إلى أسرته وهذا خلاف الواقع إنما البرقية جاءت تعزية باسم الشيخ / أبي الحسن الخنيزي والحقيقة بنتُ البحث.

وإن علماء القطيف هم الذين قادوا مسيرة الخير كل بما أعطاه الله من طاقات وخدموا هذا الوطن.. فجزاهم الله خير الجزاء.

اقتراح

وبقى عليَّ فقرة واحدة هي اقتراح عليك يا أبا كامل: أن تصلح الأخطاء التاريخية منذ الحلقة الأولى حتى هذه الحلقة ومن ضمنها أن الزعيم على بن حسن أبو السعود عين في المجلس البلدي بأمر ملكي وفى تلك الفترة كان التعيين والفصل وحتى رئيس البلدية وموظفيها وجميع أجهزتها تعيينهم وفصلهم خاضع إلى سمو أمير المنطقة الشرقية المرحوم الأمير / سعود بن جلوي حيث لم تنشأ وزارة للبلديات واقتراحي أن تضمها وتجمعها في كتاب يرجع إليه وأنا ما كتبت هذا التعليق إلا للتصحيح وليس لي هدف غير ذلك، وحتى تعرف الأجيال هذا التراث الضخم وتعرف الخطأ من الصواب.

والله الموفق للجميع لما يحبه ويرضاه

الكتاب الذين كتبوا عن أعمالي

أريد أن أثبت هنا بعض المفكرين الذين اهتموا وكتبوا عن بعض أعمالي الكتابية وليس على سبيل الحصر وإنما نذكر شريحة منهم وهي كسجل أو فهرست لهذه الأسماء وهي: ـ

اسم المؤلف	اسم الكتاب	اسم المطبعة	الطبعة والتاريخ	رقم الصفحة
د / بدوي طبانة	من أعلام الشعر	دار الرفاعي ـ الرياض	ط١ ـ ١٤١٢	٣٢٧
الشيخ عبد الله الخنيزي	نسيم وزوبعة	القاهرة	ط١ ـ ١٣٩٧	٢٣١
د / بكري شيخ أمين	الحركة الأدبية في المملكة العربية السعودية	دار صادر بيروت	ط١ ـ ١٣٩٣	٣٨٥
الأستاذ / محمد سعيد المسلم	واحة على ضفاف الخليج	مطبعة الفرزدق الرياض	ط٢ ـ ١٤١١هـ	٤٠٥
الأستاذ / محمد سعيد المسلم	هذه بلادنا	مطابع جامعة الملك سعود	ط١ ـ ١٤١٠	٢٣٠
الأستاذ / محمد سعيد المسلم	ساحل الذهب الأسود	دار مكتبة الحياة ـ بيروت	ط٢ ـ ١٣٨٢ هـ	٢٤٧
الأستاذ / عبد الله عبد الجبار	التيارات الأدبية الحديثة في قلب ج	جامعة الدول العربية	ط١ ـ ١٩٥٩	٢٨٩
الأستاذ / عبد الله أحمد الشباط	أدباء من الخليج العربي	الدار الوطنية ـ الخبر	ط١ ـ ١٤٠٦هـ	٢٧٤
د / عبد الله آل مبارك	الأدب العربي في الجزيرة ق ١	مطبعة الجبلاوي ـ القاهرة	ط١ ـ ١٩٧٣	٣٦
د / عبد الله الحامد	الشعر المعاصر في المملكة العربية السعودية	دار الكتاب السعودي	ط١ ـ ١٤٠٦	٨٢
خليف بن سعد الخليف	الإتجاه الإسلامي في الشعر الحديث	مطبعة سفير ـ الرياض	ط١ ـ ١٤٠٩	٨٩
د / عمر الطيب الساسي	الموجز في تاريخ الأدب السعودي	مطابع سحر ـ جدة	ط١ ـ ١٤٠٦	٢٤٤
عبد العلي آل سيف	القطيف وأضواء على شعرها الحديث	مطابع الفرزدق ـ الرياض	ط١ ـ ١٤٠٦	٣٠٠
عبد الرحمن العبيد	الأدب في الخليج العربي	النشاط الثقافي ـ الرياض	ط١ ـ ١٣٧٧هـ	٥٨
د/ شيخ عبد الهادي فضلي	في أخبار الظهران			

الأستاذ / الخياط	في البلاد السعودية			
أ/ شفاء عقيل	دراسة عن الشعر الرومانسي	رسالة ماجستير		
د / علي جواد الطاهر	معجم المطبوعات	مطابع الفرزدق ـ الرياض	ط٢ ـ ١٤١٨	٤٦، ١١٥٤
د / علي جواد الطاهر	عالم الكتاب	المجلد الثالث العدد الرابع	١٤٠٣	١٩، ٥١٨
السيد حسن أبو الرحى	المنهل	المجلد الثاني		٧٥
الشيخ علي شيخ منصور المرهون	شعراء القطيف	الجزء الثاني		١٥٠
د / أبو بكر الشمري	الفهرست المفيد في أعلام الخليج	الدار الوطنية ـ الخبر	ط١ ـ ١٤١٣هـ	١٥٩
الدائرة للأعلام	معجم الكتَّاب والمؤلفين	الدائرة للأعلام المحدودة	ط٢ ـ ١٤١٣هـ	٥٢
عبد الله حسن آل عبد المحسن	شعراء القطيف المعاصرون	مطابع الرجاء ـ الخبر	ط١ ـ ١٤١٤هـ	٥٨
السيد حسن العوامي	صحيفة اليوم			
السيد محمد الصويغ				
الأستاذة / فردوس الخنيزي	ديوان مدينة الدراري	مطابع الرضا ـ الدمام	ط١ ـ ١٤١٤هـ	٩
د / حسام سعيد الحبيب	ديوان كانوا على الدرب	مؤسسة البلاغ ـ بيروت	ط١ ١٤١٦ هـ	٩
أ/السيد حسن العوامي	من وحي القلم	دار المحجة	ط١ ـ ١٤٢٣هـ	٤٠
سعود الفرج	شعراء مبدعون	القطيف	ط١ ـ ١٤١٧	٣٢٣
فائز المسلم	ذكرى مؤرخ وشاعر	الدمام	ط١ ـ ١٤١٨	٢٦٣
خالد سعود الحليبي	الشعر الحديث في الإحساء	مطابع الوفاء الدمام	ط١ ـ ١٤٢٤	٩٠، ١١٢، ٤٠٨،
أحمد سعيد بن سلم	موسوعة الأدباء والكتَّاب	دار المنار القاهرة	ط١ ـ ١٤١٢	٣٢٣
خالد أحمد اليوسف	دليل الكتَّاب والكاتبات	الجمعية العربية	ط٣ ـ ١٤١٥	١٠٨
د/ محمد عثمان الملا	الحكمة في شعر بني عبد القيس	الدار الوطنية	ط١ ـ ١٤٢٠	٨٥
معجم البابطين	الشعراء العرب المعاصرين	مطابع الملك فهد	ط١ ـ ١٩٩٥	١٨٦
معجم البابطين	الشعراء العرب المعاصرين	مطابع الملك فهد	ط١ ـ ١٩٩٥	٦٠٥
سعيد أحمد الناجي	المعجم الخفيف في تراجم أعلام القطيف			

مضافاً إلى ما كتبته الصحافة المحلية والخارجية عن هذه الأعمال الأدبية وأذاعت عنها الإذاعات العربية والغربية.

الأعمال العلمية والأدبية

أسم الكتاب	أسم المطبعة	سنة الطبع	نوع الكتاب
النغم الجريح	دار مكتبة الحياة ـ بيروت	١٣٨١هـ ـ ١٩٦١م	شعر
شيء اسمه الحب	مكتبة الأنجلو المصرية	١٣٩٦ هـ ـ ١٩٧٦ م	شعر
شمس بلا أفق	الدار العالمية ـ بيروت	١٤٠٦ هـ ـ ١٩٨٦ م	شعر
مدينة الدراري	مطابع الرضا ـ الدمام ـ السعودية	١٤١٤ هـ ـ ١٩٩٣ م	شعر
كانوا على الدرب	مؤسسة البلاغ ـ بيروت	١٤١٦ هـ ـ ١٩٩٥ م	شعر
خيوط من الشمس «قصة وتاريخ»	مؤسسة البلاغ ـ بيروت	١٤٢٠ هـ ـ ٢٠٠٠ م	مجلدين نثر
الشعر ودوره في الحياة: أنجز منه مجلدين (المجلد الأوَّل ـ في جزئين) يحتوي على العصر الجاهلي، وعصر النور «الإسلام» والأموي والعباسي، وفترة الفكر الانتكاسية، والجزء الثَّاني يحتوي على دراسة حياة بعض الشعراء للأقطار العربية. المجلد الثاني (في جزئين) والجزء الثالث خاص بشعراء المملكة الرومانسيين والجزء الرابع خاصٌ بثلة من شعراء القطيف الكلاسيكيين.			
تهاويل عبقر	مؤسسة البلاغ ـ بيروت	١٤٢٢ هـ ـ ٢٠٠٢ م	شعر
العبقري المغمور	مؤسسة البلاغ ـ بيروت	١٤٢٤ هـ ـ ٢٠٠٣ م	نثر
أضواء من النقد في الأدب العربي	مؤسسة البلاغ ـ بيروت	١٤٢٥ هـ ـ ٢٠٠٤ م	نثر
إيحاءات سماوية	تحت الطبع	****	شعر
أوراق متناثرة	مخطوط	****	شعر
أشباح في الظلام	هو ذا	****	نثر
على هامش الذكرى	مخطوط	****	نثر

السيِّرة الذَّاتيَّة للمؤلفِّ

الاسم: محمَّد سعيد بن الشَّيخ عَلِيٍّ بن حسن بن مهدي الْخُنيزيّ.

تاريخ الميلاد: ٢/ ٢/ ١٩٢٥م.

العنوان: المملكة العربية السُّعودية ـ المنطقة الشَّرقية ـ القطيف

الرمز البريدي: ٣١٩١١ ـ ص. ب: ٨٧٩

تليفون ـ فاكس: ٨٥٥١٠١٣

«محمَّد سعيد الشَّيخ
عَلِي أبو الحسن الْخُنيزي»

موجز السيرة الذاتية

ولدتُ فِيْ اليوم والشهر مِنْ العام الَّذي حددتُ تاريخه بالميلادي، فِيْ الصفحة الأُولى من هذه السِّيرة، ودرجتُ على هذا الكوكب تحت رعاية والدي الشَّيخ علي أبي الحسن الخنيزي.. الَّذي كان مرجعاً وقاضياً لجميع المذاهب مِنْ سنة وشيعة.. ويرضون بحكمه، أُصبتُ فِيْ السادسة مِنْ عمري تقريباً بأثمنِ كنزٍ فِيْ حياتي، وهيَ عيني، الَّتي تعكسُ طبيعة الحياة، ومناظرها الجميلة، وعندما بلغت السابعة مِنْ عمري، أدخلني أبي الكُتَّاب.. لأنَّ ذلك الظَّرف لا توجد فيه مدارس على منهجية المدارس الحديثة اليوم، وكان هذا الكُتَّاب قمَّة الكتاتيب فِيْ ذلك العصر، ويديره ويتعاقب عليه الأخوان فضيلتا الشَّيخ محمد صالح البريكي صباحاً، وأخوه الشَّيخ ميرزا مساءً، وهذا الكُتَّاب يُعلِّم كتاب الله، ونمطاً مِنْ الخطِّ، وضرباً مِنْ أنواع الحساب، ويسمى بالجمع والطرح والضرب والقسمة، الَّذي هُوَ بعض دروس الرِّياضيات اليوم، كما يعطي لوناً مِنْ الشِّعْرِ العربي، ويشرح بعض كلماته، ويطلب مِنْ الطُّلاب حفظ ذلك الشِّعْرِ، وللكُتَّاب أسلوب ومنهجية فِيْ دفعِ الأجورِ، وأيَّام التَّعليم طيلة الأسبوع، والإجازة يوما الخميس والجمعة، ولا تتخلَّل الدِّراسة فسحات يرتاح فيها الطُّلاب مِنْ جهدِ الدِّراسة، وقَدْ خرجت مِنْ هذا الكُتَّاب بعد أنْ اجتزت مراحله التَّعليميَّة، وتعليمي كان غيبياً عَنْ طريق الحفظ القلبي.. لا البصري، خرجت مِنْهُ وأنَا ابلغ الثَّالثة عشر من العمر، وبعد فترة هيأني والدي للدِّراسة، لأتخصص فِيْ العلوم الدِّينية، فدرست قواعد اللُّغة العربية، ومِنْ كتبها متن الأجرومية

وشرحه لذحلان، وقطر الندى لأبن هشام، وألفية بن مالك، والمغني لأبن هشام، كما قرأت بعض الكتب العقلانية والفلسفية، كالحاشية في المنطق، والشَّمسية في المنطق، وقرأت كتب البلاغة، كالمطول ومختصره، وهو يبحث في أسرار البلاغة، ويوضّح لك سرّ البلاغة والنكت الَّتي تحتوي عليها، كما قرأت شريحة من كتب الفقه، وكتباً من أصول الفقه، وفوجئت وأنا في ربيع الدِّراسة، وقبل اليفاعة بموت والدي.. فكان لموته انحسار، كانحسار الرَّبيع عَنْ الورد، فأصبحت كالحقل الَّذي جفَّ ماؤه، وبرغم ما عانيته من الثالوث غير المقدس «الفقر ـ وأصابتي بالعين ـ وفقد أبي» واصلت دراستي العلمية، وكنت أقتل أوقاتي في الدروس، كما أنني أدرّس ثلَّة مِنْ الطلاب، سنشير لهم في الصَّفحة المخصَّصة لهم، وإنَّني إذ أختصر هذه الأحرف، فقَدْ وضعت سيرتي الذاتية في كتابٍ، يتكوَّن من مجلدين أسميته «خيوط من الشَّمس» يحتوي هذه الحياة البسيطة، وما عانيت مِنْ حلوٍ ومرٍّ، ومررت فيه بقنوات تاريخية تمر بحياتي الذَّاتية، أو ما يتصل بقنوات تاريخية لها ارتباط من قريب أو بعيد بهذه السِّيرة. أمَّا الوظائف: فلم ألتحق بوظيفة من الوظائف، إنَّما امتهنت عملاً حرًّا غير مرتبط بدائرة، أو مؤسسة، وهو المحاماة، وهيَ المرافعة فِيْ القضايا، الَّتي تنظر فيها المحاكم الشَّرعية.

أبرز المواقف

لقَدْ مررتُ في هذه الحياة بمواقف مؤلمة، و مفرحة، ولكن في رأيي أخطر موقف مررت به.. واتخذت فيه قراراً حاسماً، بعد أنْ مرَّت عاصفات من التردد بأفق نفسي، وحيرة تكتنفها شكوك من الضَّباب، ولكني في النهاية أصدرت قراري النهائي، وتركت دراستي العلمية لأنزل إلى ميدان العمل «المحاماة» مِنْ أجل الكسب على عيالي، لكي لا أعيش عالة على المجتمع.

أهم الأساتذة

الأساتذة الَّذين تتلمذت عليهم هم: والدي الإمام الشَّيخ علي أبو الحسن الخنيزي، والعلاَّمتان الشَّيخ عبد الحميد الشَّيخ علي الخنيزي الخطي، والشَّيخ فرج العمران، والعلاَّمة الشَّيخ محمَّد صالح المبارك، والشَّيخ محمَّد صالح البريكي، وهؤلاء العلماء كلهم من أهالي القطيف، ولكن أستاذي الَّذي أعتبره كالجامعة من النقطة الأولى إلى المرحلة العليا، هُوَ والدي.. فهو لي كجامعة من المعارف.

أهم تلامذتي

إنَّ التلاميذ الَّذين درسوا على يدي كُثْر، لعلَّهم يصلون إلى خمسين طالبًا، أو يزيدون.. غير أنَّ مِنْ أنجحهم وأبرزهم فضيلة الأُستاذ العلاَّمة الشَّيخ عبد الله الشَّيخ علي الخنيزي، حيث أسهم فِيْ الحياة الفكرية بثروة ثرة، في حرفٍ في كتبٍ متعددة الألوان.. خدم بها اللُّغة العربية والفكر، والشَّيخ عباس المحروس حيث أصبح خطيباً، وعبد الغني أحمد السنان، حيث أصبح أحد الشَّخصيات البارزة في شركة أرامكو السُّعودية، ومحمَّد سعيد الشَّيخ محمَّد علي بن حسن علي الخنيزي، أصبح شخصية من الشَّخصيات الوطنية بالقطيف، ومهنا الحاج حسن الشماسي، ومحمَّد رضا نصر الله، حيث أصبح صحفياً غير محدود، وفؤاد عبد الواحد على نصر الله، حيث صار صحفياً، ومحمَّد وحسن إبنا الشَّيخ فرج العمران، وجاسم بن أحمد بن إبراهيم بن حسن آل خضر، وجمال عبد اللطيف وحسن أحمد الطويل، وهناك طلاب آخرون إنَّما لا تسع هذه الصَّفحة لذكرهم.

السيرة العملية

إنَّ سيرتي العملية: كانت تنبثق عَنْ عملٍ حرٍّ - وهيَ المحاماة - فإنَّني لَمْ ألتحق بوظيفة في القطاع الخاص.. أو العام.. على حد سواء، إنَّما استعملت معارفي العلمية في المحاماة، وصرت لا اقبل مرافعة قضية، إلاَّ

بعد دراستها، ومعرفة وسائل حججها ووثائقها، فإذا طبقتها حسب معرفتي على القواعد الشَّرعية، وبان لي موافقتها على ذلك قبلتها، وترافعت فيها، ومن أجل ذلك كسبت أكثرها بفضل الله وتوفيقه.

رؤية ودراسات

لابُدَّ من إشارة مقتضبة لما قام به المفكرون والأدباء من دراسات عميقة عن أعمالي الأدبية، وقد أشير لبعضها في مقدمة ديوان مدينة الدراري، الدراسة الَّتي كتبتها البنت فردوس، والدِّراسة الَّتي في مقدمة كانوا على الدرب، للدُّكتور حسام سعيد سلمان العبد الهادي الحبيب، ودراسات متفرقة، لم يجمع شتاتها فِيْ كتيب يبقى رصيداً ومرجعاً، لمن أراد الدراسة عن هذه الأعمال، وهذه الدراسات نشرت على صفحات الصُّحف الداخلية والخارجية، وفي كتب كثر، كما أذيعت حلقات دراسية من إذاعات عربية.. وغير عربية، ومن راديو المملكة من جميع محطاتها، ومن راديو لندن في رياض الشِّعْر، وأكثرها أشير لها في كتاب «خيوط من الشَّمس» كما شاركت في عدَّة ندوات فكرية وأدبية،أبرزها مؤتمر الشعر في الخليج الذي أقيم في مدينة الرياض تحت رعاية رئيس رعاية الشباب الأمير فيصل بن فهد عام ثمانية بعد الأربعمائة والألف هجري وأخر ندوة الَّتي أقامها لي النَّادي الأدبي بقاعة الجمعية الخيرية بالقطيف، في عام ١٤١٩هـ.

الفهرس

الإهداء ٥

المقدمة ٧

الشبح الأول ٩

الشبح الثاني ١٣

الشبح الثالث ٢١

الشبح الرابع ٢٩

الشبح الخامس ٣٥

الشبح السادس ٤٩

الشبح السابع ٦٥

الشبح الثامن ٧٣

الشبح التاسع ٧٩

الشبح العاشر ٨٥

الشبح الحادي العاشر ٩١

الشبح الثاني عشر ٩٧

الشبح الثالث عشر ١٠٣

الشبح الرابع عشر ١١١

الشبح الخامس عشر ١١٧

الشبح السادس العاشر ١٢٥

الشبح السابع عشر ١٣٧
الشبح الثامن عشر ١٤٣
الشبح التاسع عشر ١٤٩
الشبح العشرون ١٥٥
الشبح الحادي والعشرون ١٦٣
الشبح الثاني والعشرون ١٧١
الشبح الثالث والعشرون ١٧٩
الشبح الرابع والعشرون ١٨٥
الشبح الخامس والعشرون ١٩٣
الشبح السادس والعشرون ٢٠١
السِّيرة الذَّاتيَّة للمؤلِّف ٢١٧
موجز السيرة الذاتية ٢١٩
الفهرس ٢٢٣





حارة حريك - شارع الشيخ راغب حرب - قرب نادي السلطان

ص.ب: ٥٤٧٩ / ١٤ - هاتف: ٠٣/٢٨٧١٧٩ - تلفاكس: ٠١/٥٥٢٨٤٧

E-mail:almahajja@terra.net.lb

www.daralmahaja.com / info@daralmahaja.com